الفصل الخامس

تاريخ سيناء

مقدمة :

منذ فجر التاريخ ولشبه جزيرة سيناء منزلة رفيعة فى قلب مصر فهى درعها الواقية وبضعة من وجدانها الصافى .

ولهذا خصها الفرعون (سمرخت) بنصب عظيم أقامه فى وادى المغارة تمجيدا لآلهة سيناء المقدسة .

كما أن لسيناء فى تاريخ مصر الفرعونية آثار خطيرة ، فلا يكاد عصر من عصوره يخلو منها ، فموقعها الجغرافى خطير جعلها بمثابة حلقة الوصل بين أكثر بلاد الشرق فى حوض البحر الأبيض . وتزداد قيمتها أو تنقص تبعا لحاجة كل قطر إليها أو علاقته بها ، فمن شعوب تلك الأقاليم من كان يتصل بها قاصدا إليها ، ومنها من كان يتصل بها ليعبرها مشرقا أو مغربا .

وكانت جنات مصر الخضراء تغرى قبائل البدو المقيمة شرقى سيناء بالإغارة عليها عبر سيناء ، واضطر فراعنة الوادى إلى الإكثار من الحملات العسكرية لتأديب البدو المغيرين ولتأمين عمال المناجم الذين كانوا يقصدون إلى شبه الجزيرة لاستخلاص النحاس والفيروز من مناجمها الغنية ، وكانت من مقومات بناء الحضارة المصرية منذ فجر تاريخها .

وقد طمعت فى سيناء بابل وآشور من أجل هذه المعادن .

وعلى أرض سيناء التقى المصريون والبابليون والآشوريون منذ أقدم العصور وترك ذلك طابعه على حضارات هذه الممالك .

ولعل فى اسم شبه الجزيرة ما يشير إلى اتصالها بتلك الشعوب السامية الشرقية لأن اسمها متصل فى الغالب باسم إله القمر (سين) معبود الساميين ، فقد عرف وقدس بهذا الاسم فى بابل وبلاد النهرين وأخيرا فى جنوبى بلاد العرب .

ولم تكن سيناء معبرا للقبائل المغيرة على مصر كباب مدخلها الشرقى إلى وادى النيل أم للحملات المصرية إلى غربى آسيا ، بل كانت أيضا محطة تستريح بها قوافل التجار الفينيقيين فى ترددهم بين مدائن الساحل الفينيقى وشمالى أفريقيا الغربى . وكان لها من هذه الناحية أثر خطير فى التجارة وتبادل السلع بين

المصريين وسكان أقاليم الشرق القريب ، ولم تستطع الحروب التى قامت بين مصر وأقطار الشرق أن تقضى عليها ، بل كانت فى أكثر الأحايين عاملا من عوامل تنشيط الحركة التجارية ، إذ كان التجار يرافقون الجيوش ويسيرون معها حاملين فى ركابها كثيرا من السلع المختلفة ليتجروا فيها مع سكان الشرق ، وقد استقبلت مصر عن طريق سيناء كثيرا من طوائف العبيد والجوارى يساقون إليها أفواجا من بلاد الشام : العبيد للعمل فى خدمة المعابد ، والجوارى للعمل فى حريم فرعون .

كما استقبلت قطعانا من الثيران الضخمة تساق إلى مصر من أقاليم الحيثيين ومن ورائها قطعان من الخيل التى عرف المصريون منذ أيام الهكسوس كيف يستخدمونها فى الحرب والسلم .

كذلك استوردت مصر من أقاليم الشام بضاعات أخرى كالسمك والملح وخشب الأرز وبعض الزيوت والأنبذة وآلات الموسيقى والمصنوعات الجلدية .

واستقبلت مصر فى عصورها المختلفة قوافل أخرى من بلاد النهرين والخليج الفارسى تحمل إليها المنسوجات الصوفية والجلود والزيت والحصير من بابل ، فتسلك الطريق إليها مارة بأرض شرقى الأردن إلى بلاد سيناء ، وكانت مصر الغنية بحبوبها وغلاتها ترسل القوافل المحملة بها إلى بلاد الشرق عبر سيناء ، وعلى الأخص إلى أرض الكنعانيين الذين كانوا يجيئون إليها عندما يشتد بهم القحط ، وحوادث مجيئهم إلى مصر قد عرفت غير مرة : جاءوها مرة إبان حكم الأسرة الثانية عشرة ، وصورت قوافلهم فى قبر أمير من حكام الإقليم السادس عشر (بنى حسن)

وجاءوها مرة أخرى فى أعقاب يوسف بن يعقوب وقصة ذلك ذكرت فى الكتب السماوية .

ولم تقتصر أهمية سيناء على ما قدمنا ، بل أدت دورا هاما فى تاريخ الحرب فى مختلف الأزمنة ، شهدت إغارات البدو على حدود مصر الشرقية ، وشهدت بعثات فرعون العسكرية منذ أيام الأسرات الأولى لضرب أولئك البدو من أهل شبه الجزيرة ومن حولها وعلى صخورها سجل الفراعنة أخبار تلك الحملات بالصور والرسوم .

ولما تقدمت الأيام بمصر واتسعت آفاق فرعون السياسية وفطن القصر إلى رسائل الخطر السياسى تنبعث على وادى النيل نتيجة أطماع الحيثيين عبر الشرق القريب جعل المصريون من شبه الجزيرة مرقبا يحرسون عنده حدود الوادى ويذودون عن سيناء ويدبرون أمر تأمينها من شر المغيرين ، كما اتخذوا من ميدانها مهبا لعواصف الزحف يوم يتراءى لهم الخطر من وراء الأفق القريب تنتقل موجاتها فى ركاب جيوشهم مشرقة ومصعدة بين ربوع الشام وعلى أرض الجزيرة . فلم تكد حرب الاستقلال على يد (أحمس الأول) تنتهى إلى ما انتهت إليه من طرد الهكسوس وزوال سلطانهم من عالم الوجود حتى نهضت مصر نهضتها المعروفة أيام الأسرة الثامنة عشر : فقاد أكتر ملوكها جيوشهم إلى أقاليم الشرق ولبعض الملوك من أمثال تحوتمس الأول والثالث وأمينوفيس الثانى فى ميادين الشرق صولات وجولات .

وتتابع خلفاؤهم ، فاستأنفوا ذلك النشاط العسكرى لإقرار السلام فى الشرق وإخماد الثورات فى فلسطين ، كما وقع فى أيام توت عنخ آمون وحور محب ، وفى أيام سيتى الأول إلى أن كانت أيام رمسيس الثانى فحمل حملته المشهورة عبر سيناء لملاقاة الحيثيين حيث هزمهم عند قادش .

وتصاب مصر بنوبات من الضعف السياسى والاقتصادى فتتطلع إليها أمم أخذت تنهض فى الشرق مثل آشور التى أدركت جيوشها مصر فى منتصف القرن الثامن ق . م . ثم تتخلص منها بعد ذلك وما تكاد تتنسم نسيم الحرية حتى تظهر دولة الفرس ، فيسوق ملكها قمبيز جيوشه على مصر ، فتدخلها عام ٥٢٥ ق . م بعد أن غلب كثيرا من الأقاليم والبقاع فى غربى آسيا ، ثم يظهر الإسكندر فيغلب أمة الفرس بعد مصرع مليكها (دارا) ، ويظل يتبختر على أرض الشرق القريب حتى يصل إلى مصر فيدخلها عبر سيناء عند أواخر القرن الرابع .

ولما حكم البطالمة مصر كانت نظرتهم إلى الشرق أشبه شىء بنظرة الفراعنة فى أواخر القرن السادس عشر ، فأخذت جيوشهم تعبر سيناء لاسترداد بعض أقاليم فلسطين ، وطوت الأيام عهد البطالمة وأكلت من ورائه سلطان الرومان وكان نجم الإسلام قد أخذ يتلألأ فى سماء الوجود فساق المسلمون جيوشهم إلى مصر فدخلوها عبر سيناء عند منتصف القرن السابع الميلادى .

وظلت شبه الجزيرة تشهد حركات الجيوش من وراء ذلك أيام حروب الصليبيين وعلى عهد المماليك وفى زمن الأتراك العثمانيين ثم ملحمة الفرنسيين عند أواخر القرن الثامن عشر حينما حاول بونابرت أن يبعث إمبراطورية فرنون تحت راية فرنسا فساق جيوشه إلى الشام عبر سيناء . وأنكرت الأيام عهد الفرنسيين فى الشرق حتى ساقت الأقدار محمد على ذلك الجندى المجهول الذى أصبح واليا على مصر ليرمى بصره نحو الشرق فينتشر جنوده فوق ربوعه ومازال يسوقهم حتى أدرك بهم بلاد الأناضول (آسيا الصغرى) .

وينحسر المد المصرى بأيدى البريطانيين عند أواخر القرن الماضى ، فتغدو شبه جزيرة سيناء موصلا بينها وبين أملاك العثمانيين فى الشرق .

ولن ننسى أن شبه الجزيرة كان ذا أثر دينى فى حياة الشرق ففيه قدس المصريون القدماء معبودتهم حاتحور ، وجعلوها ربة للمناجم التى استغلوها فى صخور سيناء .

وهناك راحت إيزيس تبحث فوق قمم الجبال عن رفات أوزوريس إله النماء والخصب ، وحمل جبل طور سيناء المقدس اسم جبل حوريب وكانت تقطنه فى عقائد المصريين القديمة أربابهم القدماء .

وفيها قدست الشعوب السامية – وفى مقدمتها شعوب النهرين – معبوهم (سين) وكان إله القمر وقد كان من المعبودات الشهيرة ، وكان معبده العظيم فى (أور) وكان الملوك يفاخرون بالانتساب إليه .

ثم أدى شبه الجزيرة دوره مرة أخرى فى الحياة الدينية فإليه خرج موسى يقود بنى إسرائيل من مصر

وهنالك لقى فيها (يهوى) ذلك المعبود الذى عرفته كنعان وجعلته رمز الهواء والبرق والرعد ومن قبل كان موسى قد عرفه فى غرب آسيا عندما فر إليها هاربا من مصر خشية انتقام الملأ من أهل صديقه وخوفا من القضاء أن يمسكه ثم يأخذه فى دين فرعون ، هنالك لقى موسى ربه الذى ناداه من جانب جبل الطور الأيمن ثم بعث به إلى فرعون كما ذكرت بعض كتب السماء .

وعن طريق شبه الجزيرة أخذت المعبودات المصرية طريقها إلى ربوع الشرق فقدست (حاتحور) وانتشرت عبادة (آمون) على ساحل فينقيا منذ أيام الأسرة الثامنة عشرة ومن قبل اتصلت عبادة أوزوريس بوادى الأرز فى لبنان واتصلت الحياة الدينية وطقوس الجنازة عند المصريين بمحصولات لبنان .

وعن طريق شبه الجزيرة عرفت المعبودات السامية طريقها إلى مصر فدخلها (بعل) فى ركاب الهكسوس ودخل بعضها عن طريق أسرى الحرب من الكنعانيين مثل معبودهم (حورون) وكان يعبد على هيئة الصقر فساووا بينهم وبين صاحب صنم (أبو الهول) القائم فى صحراء الجيزة .

وتأثر المصريون من أهل العصور المتأخرة فى تسمية معبودهم باسم (حورون) هذا الذى عكف الكنعانيون على عبادته فى مصر وحرف الاسم أخيرا إلى (بوهول) . (بوهول – أبو الهول) .

ومنها ما أدخله بعض فراعنة الأسرة الثامنة عشرة من أرباب الحرب والقوة مثل (عشتارة) ، (ورشب) وقد تعشقها (أمينوفيس الثانى وتحوتمس الرابع) وكان (أمينوفيس الثانى) ملكا قويًا غلابا رزقه الله من قوة البدن وشدة الساعد ما جعله موضع الفخر عند أهل زمانه .

عرفت تلك المعبودات طريقها إلى مصر ، واتخذت أماكنها الرفيعة فى المعابد المصرية ، وكان (لعشتارة) معبد فى (منف) وكان الفراعنة يفاخرون بالتقرب إلى تلك المعبودات يتبركون بها ويطلبون عندها الخير والمعونة ويخرج أمينوفيس الثانى على رأس جيشه إلى آسيا فيشبه قومه بالمعبود (رشب) وهو يعبر فخاض الأورنت فى شجاعة وخفة . ويمرض فرعون مصر أمينوفيس الثالث مرضه الأخير ، فيرسل إلى صهره ملك ميتانى ليبعث إليه بدمية (عشتارة) ليحذر بها من شر المرض .

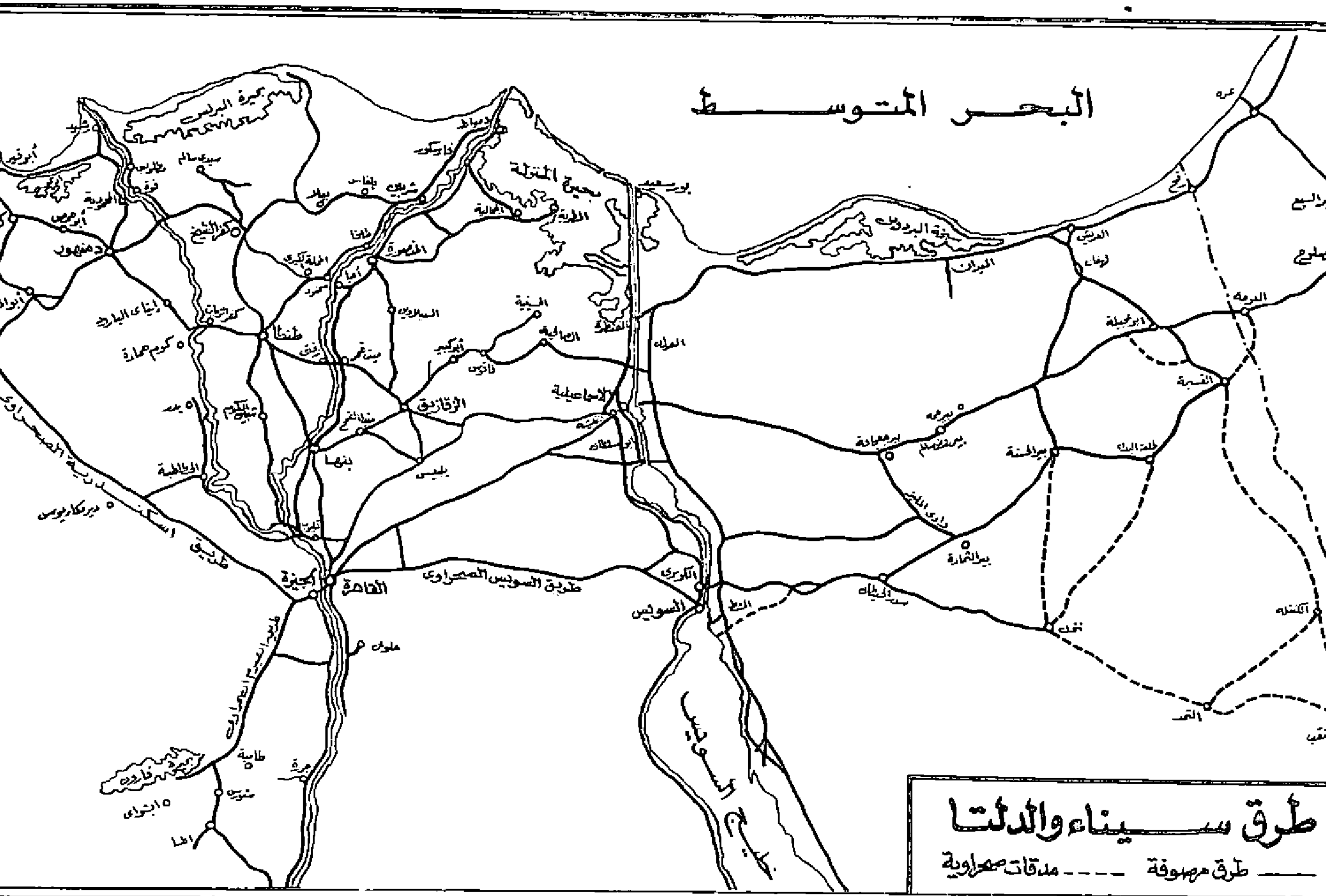
البحر المتوسط
بحيرة البرلس
بحيرة المنزلة
بحيرة البردويل
دمياط
بورسعيد
دمنهور
كفر الشيخ
المنصورة
طنطا
الزقازيق
بنها
الإسماعيلية
القاهرة
الجيزة
حلوان
السويس
طريق السويس الصحراوى
العريش
رفح
نخل
بحيرة قارون
طرق سيناء والدلتا
طرق مرصوفة
مدقات صحراوية

سيناء فى العصر الفرعونى

ليست شبه جزيرة سيناء هى المنطقة الوحيدة فى مصر التى بها خامات النحاس ، ولكن يمكننا القول بأن هذه المنطقة هى أقدم المناطق التى ترك فيها القدماء نقوشاً تثبت استغلالهم لها . ولكن المادة التى ورد اسمهـا فى النقوش هى (المفكات) ، وأن منطقة المغـارة كانوا يشيرون إليهـا فى النقوش ويسمونها « خيتومفكات » : أى مدرجات المفكات ، ولكن النقش رقم ٢٣ فقط بمنطقة المغارة قد ورد فيه ذكر معدن آخر وهو « بيا » أحضرته تلك البعثة مع الـ « مفكات » .

وقد ظن فى بادئ الأمر أن المفكات هو النحاس ، ولكن ثبت أخيراً بعد تقدم الأبحاث اللغوية أن المفكات هو الفيروز وأن الـ « بيا » هو النحاس . ومن الكتابات المصرية التى تركتها بعثات التعدين وعلى الأخص فى المغارة وسرابيت الخادم وما حولها – نجد أن كلا من الفيروز والنحاس فيهما ، وأن آثار العمل واضحة فى استخراج كل منهما ، ولكن استخراج الفيروز كان على نطاق واسع . وليس من المستبعد أن يكون استغلال وادى المغارة لاستخراج النحاس قد بدأ فى العصور القديمة وفى أثناء ذلك اكتشف الفيروز ، غير أنه حدث بعد اكتشاف مناجم للنحاس فى الصحراء الشرقية أن اقتصرت البعثات على الفيروز فقط ، ولكن من حين إلى حين كانت تستغل خامات النحاس الموجودة حتى فى سيناء ، ولم يبق هناك إلا القليل منها . إن المغارة وسرابيت الخادم أهم مناطق التعدين القديمة فى سيناء ، وسنتحدث عنهما تفصيلاً فيما بعد ، ولكن هناك أماكن أخرى استخرج المصريون منها النحاس أيضاً وأهمها :

١ – وادى نصب :

يتفرع هذا الوادى من وادى سويوق على مقربة من التقائه بوادى بيع ، وأهم ما فيه الكمية الكبيرة من بواقى النحاس المصهور التى يصل ارتفاعها بين ١٨٠ سم ، ٢٤٠ سم ، وتغطى مساحة اختلف الباحثون فى تقديرها : فقدرها أحدهم بأن طولها ١٦٧ ياردة ، وعرضها ١٠٠ ياردة وللتحقق من صحة التقدير يحتاج إلى عمل خاص لرفع الرمال المتراكمة على أطرافها كما أن فى آخر

الوادى تقريباً كمية أخرى ، كما ذكر بترى أن وزن الكمية الرئيسية للمخلفات حوالى ١٠٠,٠٠٠ طن .

وقد عثر فى وادى نصب أيضاً على بقايا فرنين لصهر النحاس ، وكانت الخامات التى تصهر فى وادى نصب بعضها يأتى من سرابيت الخادم ويأتى بعضها الآخر من وادى خريط الذى يتفرع من وادى بعبع ويبعد ٥ ك م رأيه على وجود طريق بين الواديين ، وقد صنع القدماء لوحات مكتوبة ما زالت إحداها باقية فى أعلى وادى نصب من عهد الملك أمنمحات الثالث من الأسرة الثانية عشرة ، وهذا الطريق كان يمر أيضا بوادى روض العير الذى توجد به نقوش أيضاً حتى يصل إلى مكان على مقربة من المعدن فى سرابيت الخادم ، ومما يساعد على اختيار وادى نصب مركزاً لصهر خامات النحاس وجود المياه به للغسل وأشجار للوقود .

٢ – وادى خريط :

فى هذا الوادى الصغير الذى يتفرع فى الناحية الغربية من وادى بعبع بعد وادى النصب بما يقرب من ٢ كم - نرى فى الجهة الغربية منه منجماً قديماً قطعه القدماء فى طبقات الفحم والمنجنيز ، وهذا المنجم ليس إلا سرداباً غير مستقيم الشكل ينزل فى باطن الأرض طوله نحو ١٠٠ متر وعرضه عشرة أمتار وارتفاعه مترات فى المتوسط .

ولم يمس القدماء خامات الحديد أو المنجنيز بل تركوها ولم يأخذوا إلا خامات النحاس الموجودة فى هذه الطبقة من الصخر ، ومن الأرجح أن العصر الذى كان العمل جارياً فيه هو نفس العصر الذى كان المصريون القدماء يعملون فيه فى سرابيت الخادم ووادي نصب . ومن الواضح أن الطريق الذى كان يوصل إليه من فوق المنحور كان خيراً مما هو عليه الآن ، وكان صالحاً لسير الحمير التى كانت تنقل خامات النحاس لتوصيلها إلى وادى نصب لصهرها ، وظل هذا الوادى الصغير غير معروف للباحثين عن تاريخ سيناء حتى ١٩٣٠ عندما اكتشفت البعثة المشتركة من جامعتى هارفارد وواشنطن الكاثوليكية عدداً كبيراً من النقوش .

٣ – وادى أم ثمايم :

وهناك نقوش مصرية فى وادٍ آخر ، وهو أم ثمايم الذى كانت تأتى إليه البعثات لاستخراج الفيروز فى أيام الدولة الوسطى ، وهذا الوادى قريب من المغارة ، ويصف العالمان جاردنر وشرلى الطريق الموصل إليه بأنه إذا سار الإنسان فى وادى قنية الذى فيه جبل المغارة ويسير فى وادى سدرة متجهاً أولاً نحو الجنوب ثم يتجه نحو الغرب يرى على الجانب الشمالى بعد سيره ميلاً ونصف الميل على وجه التقريب مدخل وادى أم ثمايم .

وقد لاحظ بالمر فى عام ١٨٧٨ وجود أثر من عمل القدماء فى استخراج معادن هذا الوادى ، وفى

عام ١٩٠٥ زار «ثى» هذه المنطقة ، وقد عثر فى مجرى الوادى على صخرة عليها بعض كتابات ، وعلى مقربة منها بعض المغارات القديمة المهدمة ، وقد ذكر «ثى» عدم توفيقه فى حل معظم نقوشها ، كما أنه لم يعثر على اسم أى ملك فى أى نقش ، ولكنه يعتقد أنه من الأسرة الثانية عشرة .

وعلى مقربة من سهل سند نجد أن القدماء قد قطعوا فى صخر الجبل مسافة استطاع هيوم أن يقدرها بميلين ويقول عنه : إن خاماته غنية جداً بكربونات النحاس الزرقاء (الأوزديت) . فى التلال التى غرب سهل بنك شرم ، وقد ذكر هيوم أن جزءاً من الحام الذى هناك هو من الملخيت وربما كان هو المعدن الذى عنى القدماء بتعدينه . ولكن هناك فيه خامات أخرى من مركبات النحاس . كما أن هناك أيضاً بقايا العمل القديم لاستخراج النحاس وصهره فى مكان على مقربة من وادى رمنى وهو أحد الوديان المتصلة بوادى نصب الذى يصل إلى خليج العقبة على مقربة من دهب ، وهو غير وادى نصب الذى على مقربة من سرابيت الخادم ، وقد ذكر لوكلس هذا الوادى فى كتابه . وهناك أيضاً كمية من مخلفات صهر النحاس عند جبل سفريات جنوب جبل حبران وليس هناك نقوش ، ولكن بقايا العمل القديم ما زالت واضحة هناك .

وادى المغارة

إذا رجعنا إلى الخرائط الرسمية لا نجد مكاناً يسمى وادى المغارة ، وإنما يطلق بدو سيناء اسم المغارة على منطقة صغيرة من وادى قنية الذى يتفرع من وادى أفنا . وبعبارة أدق يطلقون هذا الاسم على مسافة لا يزيد طولها على خمسمائة متر من الناحية الغربية من الوادى وهى الجبل الذى فيه العروق التى كانوا يستخرجون منها الفيروز ، وربما كان جبل المغارة أقرب إلى الصحة ، ولكنها غير مستعملة بين بدو المنطقة وما زالت هناك فى الناحية الشرقية من الوادى بقايا أكواخ العمال القدماء فوق أحد المرتفعات . ولكن النقوش الهامة لم يعد باقياً منها أى نقش ، إذ تحطم بعضها ، ونقل الباقى إلى المتحف المصرى .

ولقد ظلت هذه النقوش سليمة حتى عام ١٨٩٧ وقد أخذت لها صور فوتوغرافية ، وعملت لها طبعات بالورق بمعرفة المغامر الإنجليزى الميجور ماكد ونالد ، وما زالت هذه الطبعات محفوظة حتى الآن فى المتحف البريطانى ، وقد أفادت كل المشتغلين بدراسة نقوش المغارة ، وكانت منطقة المغارة حتى عام ١٨٩٧ عندما فحصت وصورت نقوشها تكاد تكون كما تركها المصريون القدماء ونقوشها فى أماكنها على جانب أو فوق فتحات المناجم القديمة وكانت هذه المناجم نفسها سليمة . ولكن حدث فى عام ١٩٠١ أن تكونت شركة إنجليزية جديدة لاستغلال الفيروز فلجأت لسوء الحظ إلى أسوأ أساليب العمل ، فكانوا ينسفون بالديناميت الطبقة الصخرية التى تحتوى على الفيروز دون مراعاة للنقوش القديمة أو للمناجم القديمة ، فحطموا هذه وتلك ، وسرعان ما تعلم أهل سيناء الطريقة الجديدة فى الحصول

على الفيرور ، فاستمر التخريب إلى أن حل عام ١٩٠٥ ودهبت بعثة بترى إلى هناك ووجد بترى أن خير حل لإنقاذ ما بقى من نقوش هو نقلها إلى المتحف المصرى ، فجمع هو وكرلى ما تبعثر من نقوش حطمها الديناميت ، وقطعوا ما ظل سليماً منها نظراً لارتفاعه ، وحملوا كل ذلك إلى الشاطئ حيث نقلته سفينة إلى السويس ومنها إلى القاهرة . ولم يبق فى جبل المغارة إلا رسم واحد كبير وهو النقش المعروف باسم لوحة سمرخت فهو مكانه مرتفع جداً ، ويصعب الوصول إليه فظل هناك .

والمجموع الكامل للنقوش التى كانت فى وادى المغارة قبل تحطيمها والتى وصلت صور منها إلى العلماء هو ٤٥ نقشاً ، منها ٢٢ من الدولة القديمة ، وعشرون من الدولة الوسطى ، واثنان من الدولة الحديثة ، وهناك إجماع على أن أقدم النقوش فى وادى المغارة هو نقش الملك « سمرخت » سابع ملوك الأسرة الأولى ، وهو الوحيد الذى بقى فى الوادى وربما يكون قد قطع من مكانه ، وكان معتقداً أن مثل هذا الرسم يمكن نسبته إلى الأسرة الأولى ، ولكن فى عام ١٩٥٤ أظهرت الحفائر فى سقارة أن هناك هرماً أفقياً بناه الملك (سخم خت) الذى حكم فى الأسرة الثالثة بعد الملك زوسر ، واتضح فى الحال ، من طريقة كتابة اسمه أنه هو ذات الملك صاحب نقش سيناء ، وبذلك يتحتم علينا الآن ألا ننطق اسمه بسمرخت وأنه من الأسرة الأولى بل « سخم خت » وأنه من الأسرة الثالثة ، وأن زوسر هو أول الملوك الذين خلفوا نقوشاً فى المغارة ، وأن ملكين آخرين من ملوك هذه الأسرة وهما (سانخت) و(سخم خت) تركا أيضاً رسومهما هناك . ونقش زوسر فى حكم المفقود الآن ، أما نقش سانخت فقد تحطم فى أثناء تخريب المناجم عام ١٩٠١ والنصف الآخر فى المتحف المصرى . أما نقش سخم خت فما زلنا لا نعرف إن كان فى مكانه أم لا ونقش خوفو الذى كان من أجمل وأفخم نقوش سيناء قد تحطم ولا يوجد منه إلا بعض قطع نقلت إلى المتحف ومن الأسرة الرابعة هناك أيضاً نقشان للملك سنفرو مؤسس الأسرة ، وهو الآن فى المتحف المصرى .

وإذا ما وصلنا إلى الأسرة الخامسة نجد أنه كان هناك نقشان للملك ساحورع نقل أحدهما إلى المتحف المصرى والآخر إلى متحف بروكسل . ومن هذه الأسرة أيضاً نقش الملك نوسرع ، وكان أكبر نقوش المغارة وقد نقل إلى المتحف المصرى ، والملك منكا وحور له نقش هام فى المتحف ، والملك زو – كارع – إسيس كان له ثلاثة نقوش تحطمت كلها .

ومنذ منتصف الأسرة الخامسة أصبح هناك تقليد مستخدم يظهر فى النقوش ، وهو أنه بدلاً من ذكر الملك فقط أو الملك ومعه رئيس بعثة التعدين أصبح يذكر أيضاً بجانب هؤلاء أعضاء البعثة من العمال الفنيين ، ونرى هذا التقليد مستمراً فى الأسرة السادسة فى كل من نقش الملك پى الأول الذى تحطم الآن ونقش الملك پى الثانى الذى لقى نفس المصير ، والنقوش التى أشرنا إليها حتى الآن عددها سبعة عشر ذكر فى كل منها اسم الملك الذى عملت فى عهده ، ولكن يوجد أيضاً خمسة نقوش أخرى من عهد الدولة القديمة لا تذكر تاريخاً محدوداً ، وهى لا تحوى شيئاً أكثر من اسم الشخص ولقبه .

نقوش الدولة الوسطى :

انتهت الأسرة السادسة على إثر ثورة اجتماعية اجتاحت البلاد ، وقضت على البيت المالك ، ثم توالت الأسرات حتى الأسرة العاشرة ، وكان كل ملك منها يدعى أنه حاكم الصعيد والدلتا ، ولكن كان هناك أكثر من بيت مالك يحكمون جميعاً فى وقت واحد ، ويدعى كل منهم أنه سيد التاجين ، وظلت الحال هكذا حتى تمكن حكام بيت طيبة من هزيمة حكام بيت أهناسيا ، وأخذ ملوك هذا البيت الذين نعرفهم تحت اسم الأسرة الحادية عشرة أو أسرات الدولة الوسطى يصلحون ما أفسدته الأيام . ولسنا نتوقع إرسال بعثات إلى سيناء فى هذا العهد المضطرب ، ولذا لا توجد أى بعثة إلى المغارة طوال حكم الأسرات من السابعة حتى العاشرة ، بل لا نجد أى نقش لواحد من ملوك الأسرة الحادية عشرة والملوك الأوائل من الأسرة الثانية عشرة برغم اهتمامهم باستغلال المناجم ؛ كما نعرف من نقوش وادى الهودى ووادى الحمامات .

ومن المرجح أن تكون بعض البعثات التى ذهبت إلى سيناء خلال عهد الدولة الوسطى بعد الأسرة السادسة قد وجدت مصدراً هاماً آخر لاستخراج الفيروز من سرابيت الخادم ، ولم تقتصر على المغارة سواء كان هناك عمل فى سرابيت الخادم فى الأسرة الحادية عشرة أم لم يوجد ، فإن هذه المنطقة فى عهد الأسرة الثانية عشرة كانت أهم بكثير من منطقة المغارة ، وعثر بين نقوشها الكثيرة على اسم الملك أمنمحات الثالث وأمنمحات الرابع . ومن دراسة نقوش كل من المغارة وسرابيت الخادم نرى اهتمام الملك أمنمحات الثالث باستخراج الفيروز .

ففى سرابيت الخادم خمس لوحات من عهده وفى المغارة عشر لوحات وقد تحطم أكثرها ولم ينج منها إلا ثلاث فقط نقلت إلى المتحف المصرى . ومما يدعو إلى الدهشة أن الملك أمنمحات الرابع اهتم اهتماماً شديداً بالحصول على الفيروز فأرسل أربع بعثات : واحدة إلى سرابيت ، وثلاثا إلى المغارة حيث تركت لوحات ذكرت عليها تاريخ حضورها وأسماء من أتوا معها ، وإلى جانب تلك اللوحات المؤرخة ثمانية نقوش أخرى غير مؤرخة نقشها بعض العمال الذين أتوا إلى المنطقة .

وتعرضت مصر فى آخر أيام الأسرة الثانية عشرة إلى فترة أخرى من فترات الضعف وهى عهد الفترة الثانية أو الانتقال الثانى الذى شمل أيام الأسرات الثالثة عشرة حتى آخر السابعة عشرة بما فى ذلك حكم الهكسوس . ولا نجد فى المغارة اسم ملك من ملوك تلك الأسرات ، بل إنه لا يوجد إلا نقش واحد من عهد الأسرة الثامنة عشرة يرجع تاريخه إلى السنة السادسة عشرة من الحكم المشترك بين حتشبسوت وتحتمس الثالث وقد رسما معاً فى تلك اللوحة إلى جانب المنجم الجديد الذى قامت البعثة بفتحه ، وربما كانت هناك لوحة أخرى من عهد الملك رمسيس الثانى لم يرها إلا العالم الألمانى إيبرس ، وعلى كل حال فإن مناجم الفيروز فى المغارة قد تركت نهائياً بعد الدولة الحديثة بعد أن تحولت البعثات

إلى منطقة سرابيت الخادم على نطاق واسع ابتداء من الأسرة الثانية عشرة . وخيم السكون بعد ذلك على المغارة . فلم يكن يقصدها إلا بعض البدو الذين كانوا ياتون من آن لآخر لاستحراج الفيروز .

ثم جاء بعد ذلك العصر الحديث برحالته وعلمائه حيناً والمحررين حيناً آخر . وبالرغم من نقل كل النقوش من هذا المكان فإن زائر المغارة سيجد الكثير مما يعوضه : فمناظر الجبال الشاهقة على طريق وادى سدرى ووادى أقنا ، ثم وادى قنية وجمال ألوان طبقاته وبقايا المبانى القديمة هناك تملك على الإنسان مشاعره ، ويرى نفسه مضطراً إلى التفكير فى الحدود القدماء ، وكيف تيسرت لهم معرفة الصخور والتفكير فى هذا الوادى الهادئ الآن ؟ وكيف كان يعج بمئات العمال الذين كانوا يأتون إليه بين آن وآخر ؟

وادى مكتب :

وعلى مقربة من المغارة فى مكان يقال له وادى مكتب على الطريق الموصل إلى فيران والمناطق الجنوبية من شبه الجزيرة - آلاف من النقوش النبطية واليونانية والعبرية منذ أيام العصر المسيحى والقرون التالية ، وأكثرها نقوش لا تعدو اسم كاتبها وحملة قصيرة ، وقد درست كلها منذ وقت طويل . وكثيراً ما يشار إليها باسم النقوش السينائية وخصوصاً النبطية منها . ولكن دراسة نقوش وادى مكتب لم تضف إلى معلوماتنا التاريخية برغم إفادتها لغوياً ودينياً لأن أكثرها لا يعدو جملة قصيرة . ولا تقتصر هذه النقوش على وادى مكتب وحده ، بل نجدها متناثرة على طول الطريق بين وادى قنية الذى فيه جبل المغارة ، ووادى فيران الذى كان أهم مراكز الرهبان فى العصر المسيحى المبكر .

الأسرات

الأسرة الأولى والثانية : (٣٢٠٠ – ٢٧٨٠ ق . م) .

بدأ اسم الفرعون (سمرخت) أحد فراعين الأسرة الأولى يتردد فى المؤلفات الأثرية على أنه صاحب النقش الكبير الذى فى وادى المغارة بسيناء وإن كان بعض العلماء يعتقد أن ذلك النقش لا يمكن أن يكون من عهد الأسرة الأولى ، وإنما هو للملك (سخم خت) الذى تولى الملك بعد (زوسر) فى الأسرة الثالثة .

الأسرة الثالثة : (٢٧٨٠ – ٢٦٨٠ ق . م) .

أرسل زوسر الأول حملة لتأديب بعض بدو شبه الجزيرة الذين كانوا يتعرضون للحملات التى كان يرسلها ملوك مصر لإحضار النحاس من المناجم التى كانت على مقربة من جبل المغارة ، وكان المصريون قد بدءوا فى تعدين الفيروز والنحاس فى شبه الجزيرة منذ عهد الدولة الأولى ، وبعد ذلك بأجيال عدنوا الفيروز فى سرابيت الخادم ، وعدنوا النحاس فى وادى النصب الغربى ، وكانوا يستخدمون ميناء أبو زنيمة إذا كانت وجهتهم سرابيت الخادم وميناء أبو رديس إذا كانت وجهتهم وادى المغارة . وكانت حملات التعدين تذهب من مصر مرة كل سنة أو سنتين فى فصل الشتاء (شهرى نوفمبر وديسمبر) وتبقى إلى أن يشتد الحر فى شهر مايو ، فتعود بما استخرجته من معادن .

الأسرة الرابعة : (٢٦٨٠ – ٢٥٦٠ ق . م) .

سنفرو : أرسل (سنفرو) حملات التعدين إلى شبه الجزيرة ، وقد خلف رجاله ذكرى تلك الحملات على الصخور بجبل المغارة على مقربة من مناجم النحاس والفيروز فى تلك المنطقة ، وبالرغم من أن سنفرو لم يكن أول ملك استغل مناجم سيناء أو أرسل حملات لتأديب الخارجين على القانون من البدو فإن الأجيال القادمة اعتبرته أنه حام للمنطقة إلى جانب المعبودين (حتحور وسوبد) لأن أعماله فى تأمين حدود مصر الشرقية وما قام به من تحصينات هناك أصبحت المثل الذى يحتذى به . وفى

أحد النصوص التى كتبت بعد وفاته بما يقرب من ألف سنة يفتخر أحد الملوك بأعماله هناك ، ويؤكد لنا أنه لم يقم أحد بمثل ما قام به منذ أيام سنفرو .

خوفو : بعد أن تولى خوفو عرش مصر (٢٦٥٦ – ٢٦٣٣ ق . م) أرسل حملات إلى جبل المغارة فى سيناء لإحضار الفيروز وربما النحاس من هناك ، وكانت تجارة مصر الخارجية وبخاصة مع الشاطئ الفينيقى مزدهرة ، ومن المرجح جداً أنه كانت تقيم فى مدينة جبيل (إلى الشمال من بيروت الحالية) جالية مصرية للتجارة منذ أيام الأسرة الثانية ، وكان هذا من الأسباب التى أدت إلى العمل على تأمين طرق التجارة عبر سيناء .

الأسرة الخامسة : (٢٥٦٠ – ٢٤٢٠ ق . م) .

اهتم الملك (جد كارع أسيس) (٢٤٧٦ – ٢٤٢٨ ق . م) بتأمين حدوده واستغلال المناجم والمحاجر فى سيناء ، فأرسل عدة حملات إلى جبل المغارة ، وقد تركت هذه الحملات أربعة نقوش باسمه .

الأسرة السادسة : (٢٤٢٠ – ٢٢٨٠ ق . م)

لمع اسم القائد – ونى – خلال هذه الأسرة ، وكان قد جمع جيشاً ضم عشرات الألوف من كل أنحاء مصر ، وكان مبعثاً لفخره استتباب النظام بين جنوده وأن رجال الجيش كانوا جميعاً مثالاً لما يجب أن يكون عليه الجندى ، فلم يتعرض أى منهم لشخص ما فى أى بلد مروا به ، ولم يغتصب أى منهم شيئاً مهما قلت قيمته . وقد أتم هذا القائد ما كلفه القيام به سيده ، فقضى على ثورتين قامتا فى فلسطين ، وكان قمع الثورة الثانية من أهم أعماله ؛ إذ كون جيشين تقدم أحدهما بطريق البر عبر سيناء ، وسار هو مع الجيش الآخر بطريق البحر ، ونزل عند مكان قريب من جبال الكرمل ، وانتصر الجيشان وقمعت الثورة .

الأسرة الثانية عشرة : (١٩٩١ – ١٧٧٨ ق . م)

أمنمحات الأول : (١٩٩١ – ١٩٦٢ ق . م)

فرضت عليه الظروف السياسية أن يؤمن حدود ملكه ، وكان الخطر يهددها من شرق الدلتا ، فجدد قلاعها ، وضرب بدو الصحراء الذين كانوا يغيرون على تلك الحدود وقد عُثِر على قاعدة تمثال له فى تلك البقاع .

سنوسرت الأول : (١٩٦٢ - ١٩٣٠ ق . م)

كانت بعثات المصريين القدماء إلى سيناء متصلة لا تكاد تنقطع إلا فى فترات المحن السياسية الكبرى ، فلما كانت أيام سنوسرت الأول أخذ رجاله يترددون على مناجم سيناء وتشير إلى ذلك بعض آثاره التى عثر عليها فى سرابيت الخادم التى كانت بمثابة القلب فى تلك البقعة ، وليس من شك فى أن المصريين قد اهتموا بها اهتماما عظيما .

ويرجح بعض المؤرخين أنهم قد أنشأوا فيها قلعة ومكاناً للعبادة ، ولا غرابة فى ذلك فرجال المناجم فى مصر كانوا لا ينقطعون عن العمل فى مناجم طور سيناء ، والمصريون قوم لا يحلون بأرض إلا أخذوا يفكرون فى الله يبنون له الدور ويعبدون فيها مظهراً من مظاهر قوته على حسب ما توحى إليهم طبيعة الأرض التى يسكنونها . ومعروف كذلك أن رجال البعثات فى جميع العهود قد تعرضوا لخطر السطو والنهب والعدوان من جراء غارات قبائل الأعراب الذين كانوا يقيمون فى تلك البقاع أو يرتادون أو ديتها من وراء أنعامهم .

ومن آثار سنوسرت الأول التى وجدت فى ذلك المكان تمثال ومذبح ولوح من حجر وعتب لباب ، أما سرابيت الخادم فهو جبل صغير مستطيل الشكل مسطح الرأس بالقرب من ميناء أبو زنيمة ويطل من الشمال على نقب الراكنة . والسبب فى تسمية هذا الجبل سرابيت الخادم (فى رأى بعض المؤرخين) يرجع إلى اللفظ سربوت المعروف عند أهل سيناء بالصخرة الكبيرة القائمة بنفسها وجمعها سرابيت . وجميع ما فى الهيكل من بناء وأنصاب مأخوذة حجارته من الجبل قرب الهيكل والأعمدة التى على شكل تماثيل التى بالهيكل – تشبه الخدم السود البشرة ، ولهذا سمى الجبل سرابيت الخادم ، ويبدو أن المصريين مارسوا الطقوس السامية فى الهيكل الذى يعتبر أقدم هيكل معروف استخدمت فيه هذه الطقوس ، كما أن العمال الساميين الذين ساعدوا المصريين فى التعدين كانت لهم كتابة خاصة ليست الهيروغليفية .

ولقد وجد بالمعبد تماثيل غير مصرية وأقل إتقاناً منها ؛ كما وجد البحاثة (بترى) عدة مذابح صغيرة من حجر لحرق البخور ، ووجَدَ رمادا دل على أن المتعبدين فى الهيكل كانوا يذبحون ويوقدون على تلك التلة . وهذه العادة قديمة عند الساميين اقتبسها اليهود منهم . ولسنا نعرف على وجه اليقين متى بدأ قدماء المصريين يستخرجون الفيروز من هذا المكان ؟ فقد عثر فى المعبد فى أثناء تنظيفه عام ١٩٠٥ على تمثال صغير يعتقد أنه من الأسرة الثانية عشرة عندما أهو سنفرو ، وربما اعتبروه فى أيام تلك الأسرة من الآلهة الحامين لتلك المنطقة !

وعثر أيضاً على اسم الملك منوحتب الثالث واسم الملك منوحتب الرابع من ملوك الأسرة الحادية عشرة إلى جانب اسميهما واسم كل من سنوسرت الأول واسم أبيه أمنمحات الأول . ومن الصعب أن نتصور أن مناجم سرابيت الخادم قد اكتشفت فى عهد سنوسرت الأول وأنها بعد فترة قصيرة أصبحت

ذات أهمية كبيرة إلى الحد الذى جعله يقيم فى هذه المنطقة معبداً كبيراً للإلهة حتحور ، ومن المعتقد أن يكون العمل قد بدأ فى هذه المنطقة قبل عهده ، وأن التعديلات أخذت تزداد على مر السنين مما جعله يقرر تشييد هذا المعبد إقراراً لفضل حتحور وتسهيلاً لتعبد العمال .

ومن المرجح أنه كان هناك هيكل ومكان دو قداسة خاصة لعبادة الإلهة حتحور وتقديم القربين لها فى الأسرة الحادية عشرة وقد عثر فى المعبد على عتب باسم سوسرت الأول وعلى حجار معمرين باسم سوسرت الأول وأمنمحات الثانى . وأقدم أجزاء المعبد التى ما زالت باقية فى مكانها وعليها اسم من شادها هو أبهو ذوالعمودين والذى كان قائماً فى عهد أمنمحات الثالث . ويرجح أن يكون هيكل الإله سبد منحوت فى الصخر إلى جانب هيكل حتحور قد قطع أيضا فى الأسرة الثانية عشرة ولكن النقوش الحالية فى هذا الهيكل ترجع إلى عهد تحتمس الثالث ، أى فى عهد الأسرة الثامنة عشرة عندما أعيد تنظيمه ورممه . وفى عهد الملكين أمنمحات الثالث ورابع أقيم هيكل آخر بعيد عن هذين الهيكلين وهو هيكل اسوك الذى أقيم لاحل الآلهة سبد وحتحور وسنمرو .

وكانت هياكل الدولة الوسطى مقصورة على ثلاثة فقط ، اثنان منها قد نحت الجزء الأكبر منهم فى الصخر ، وأقيم أمامه بهو بسيط ، أما الثالث فقد أقيم على مسافة منهم وكان سقفه محمولا على أعمدة ويفتح نحو الشمال . فلما جاءت الأسرة الثامنة عشرة أراد ملوك هذه الأسرة أن يزيدوا من مبانيه فلم يستطيعوا الاستمرار فى نفس الاتجاه ، لأن حافة الوادى كانت قريبة ، فاضطروا للاتجاه بمبانى نحو الغرب ، وكان من ملوك هذه الأسرة اهتماماً بمعبد سرابيت هو الملك أمنحتب الأول الذى أصبح ما تهدم من مبانى هيكل حتحور وهيكل سبد وحاصة فى البهو المحمول على الأعمدة أمام كهف حتحور كما شيد الهيكل المعروف باسم حنفية حتحور ، وهو الاسم الذى أطلقه بترى على هذا الهيكل الذى كان معداً لتطهير زوار المعبد .

وفى عهد تحتمس الثالث وحتشبسوت أضيفت عدة قاعات أمام قدس الأقداس وهى المرقومة بأرقام س ، ت ، م وأمامها صرح كبير . وعاد تحتمس الثالث فأضاف قاعتين أمام البيمون (ل . ك) كما زين جدران معبد سبد ، وفى أيام ابنه أمنحتب الثانى بدأ بتشييد قاعة أخرى أمام مبانى أبيه . ولكنه مات دون أن يتمها فأتمها تحتمس الرابع ، وبنى بدوره حجرة أخرى ، وفى أيام الملك أمنحتب الثالث بنيت ست حجرات بعضها وراء بعض (أرقام ح ، ز ، ر ، هـ ، د ، ح) أقام أمامها ستين كبيرتين كانتا على جانبى المدخل ، وشيد سيتى الأول الحجرتين الأماميتين أ ، ب فأصبحت أولاهما ذات الأعمدة الأربعة هى أولى الحجرات الموصلة إلى داخل المعبد ، وقد عثر على اسم كل من رمسيس الثانى ورمسيس السادس مما يدل على قيامهما ببعض الإصلاحات وكان هذا آخر ملك من ملوك الفراعنة الذين تركوا اسمهم فى هذا المعبد . بل فى منطقة سرابيت على الإطلاق .

ولم تكتب أسماء الملوك الذين قاموا بتشييد أجزاء من المعبد فقط ، فقد وردت أسماء ملوك قدموا

تماثيل للمعبد . والنقوش التى وردت فى هذه اللوحات أو النصب كانت تحتوى على الابتهالات المعتادة للآلهة ، ويبلغ مجموع النقوش التى عثر عليها فى سرابيت الخادم ٣٨٧ نقشاً من الدولتين الوسطى والحديثة ، وهى لاتشمل نقوش المعبد بالطبع ، وإنما هى النقوش الهيروغليفية التى على اللوحات وعلى نقوش الصخور وعلى التماثيل . وأكثرها ليس فيه إلا الابتهالات وأسماء أعضاء البعثات . وفى عام ١٩٠٥ اكتشف بترى فى أثناء حفره معبد سرابيت اثنى عشر نقشاً أو قطعة أثرية عليها كتابة أبجدية حروفها تتشابه هى والعلامات الهيروغليفية وقال بترى إذ ذاك : إنها من عهد تحتمس الثالث وحتشبسوت ، أى فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد واعتماداً على قرائن أثرية ظهرت فى أثناء حفره للأماكن التى كانت فيها . وظلت هذه النقوش تقرأ حتى جاء عام ١٩١٧ فنشر ألن جاردنر محاولة موفقه لفك رموزها ، فكان ذلك بداية لاشتغال عشرات العلماء بها .

وزادت أهمية النقوش مع مرور الوقت فأرسلت البعثات كان أولها عام ١٩٢٧ ثم بعثة فى عام ١٩٢٩ وبعثة غير الأولى لجامعة هارفارد عام ١٩٣٠ وأصبح مجموع النقوش السينائية المؤكدة خمسة وعشرين نقشاً . وفى يناير ١٩٤٨ ذهب أولبريت إلى سيناء مع البعثة الأمريكية لجامعة كاليفورنيا كمستشار أثرى لها ، وكان قد نشر بحثاً عن النقوش السينائية عام ١٩٣٥ ، فانتهز فرصة وجوده فى سيناء ، فراجع جميع النقوش على أصولها ، وتوصل إلى حل ما لم يكن قد استطاعه من قبل ، وخرج يبحث فى أقوال من سبقوه ، ووجد أن تاريخ بترى وهو القرن الخامس عشر قبل الميلاد أقرب إلى الصحة من تاريخ جاردنر . وقارن بين الأبجدية السينائية والسامية الشمالية والجنوبية ، ولخص أولبريت نتيجة بحثه فقال : إنه يعتقد أن الكتابة البروتو سينائية ليست إلا أبجدية كنعانية دارجة أما عمال المناجم الذين كتبوها فيمكن أن يقال : إنهم يمثلون طبقة من السكان الساميين الذين كانوا يعيشون فى شمال شرق الدلتا قبل خروج بنى إسرائيل من مصر بقرن ونصف القرن أو قرنين من الزمان .

ويحسن بنا أن نقف قليلاً نتساءل : من هؤلاء الساميون الذين استطاعوا الوصول إليها ومدى صلة مصر بهم ؟ يعتقد أولبريت أنهم كانوا ساميين من الشمال الغربى ، أو بعبارة أدق من ذلك الفرع السامى الذى كان يسكن فى سورية على مقربة من الشاطئ ، وأنهم أتوا إلى مصر كأسرى حرب أو كانوا عبيداً فيها ومن نقوش سرابيت الخادم والمغارة يتبين أنه كان هناك آسيويون من بلاد « رتنو » التى كانت تشمل جزءاً من شمالى فلسطين ولبنان وجنوبى سورية الحالية يعملون مع البعثات المصرية فى المناجم فى سرابيت والمغارة ، وأنهم كانوا كثيرين بصفة خاصة فى عهد أمنمحات الثالث إلى جانب البدو المحليين من أهل سيناء الذين كانوا يطلقون عليهم اسم « عامو » ، وهى الكلمة العامة لبدو الصحراء المتاخمة للدلتا ، وكان بعضهم مستقراً فى شرق الدلتا .

أمنمحات الثانى : (١٩٣٠ – ١٨٩٥ ق . م)

اهتم بكنوز سيناء ، فوجه إليها بعثتين لاستخراج المعادن والحجر الكريم ، وقد ذهبت أولاهما فى السنة الرابعة من أيام حكمه ، ووجدت أخبار تلك البعثة على لوح عثر به فى تلك البقاع . وذهبت الأخرى فى عامه الرابع والعشرين وقد وجدت أخبارها على صخرة فى سرابيت الخادم ، وتشير تلك الأخبار إلى أن رجال البعثة قد فتحوا منجماً جديداً ، كذلك عثر لهذا الفرعون هناك على آثار من تماثيل وألواح .

سنوسرت الثالث : (١٩٧٩ – ١٨٤١ ق . م)

فى تاريخه ما يشير إلى أن رجاله قد وصلوا إلى شبه جزيرة سيناء لاستغلال مناجمها ، فقد عثر له ببعض آثار فى سرابيت الخادم ومن ذلك لوح وتمثال .

أمنمحات الثالث : (١٨٤١ – ١٧٩٢ ق . م)

أرسل عماله إلى سيناء فى السنوات الثانية والرابعة والخامسة والسادسة والثامنة والحادية عشرة والثالثة عشرة والخامسة عشرة والثامنة عشرة والعشرين والثالثة والعشرين والخامسة والعشرين والحادية والثلاثين والثامنة والثلاثين والأربعين والحادية والأربعين والثانية والأربعين والثالثة والأربعين والرابعة والأربعين والخامسة والأربعين من سنى حكمه أى أنه وجه إلى تلك البقاع أكثر من عشرين بعثة لاستغلال كنوزها الغنية ، وما نعرف أن تلك الكنوز قد استغلت فى عهد واحد من فراعنة مصر ، كما استغلت فى أيام ذلك الفرعون . والظاهر أن الوصول إلى تلك البقاع لم يكن سهلاً فى كل مواسم العام ، فقد كانت شدة الحر تضايق العمال وتضنيهم . ولقد أنشأ منازل للعمال فى بعض مناطق التعدين كسرابيت الخادم بطور سيناء .

أمنمحات الرابع : (١٧٩٢ – ١٧٨٢ ق . م)

امتد نشاطه الاقتصادى والعمرانى إلى شبه جزيرة سيناء وقد ظهرت آثار ذلك فى مناجم سيناء حيث عثر له على عدة نقوش سجلها رجال عهده ممن ارتادوا بقاع شبه الجزيرة ، ثم ألواح نصبها عماله فى تلك البقعة التى ارتادوها لاستخلاص النحاس والفيروز .

الهكسوس : (١٦٧٥ – ١٥٦٧ ق . م)

كان احتلال الهكسوس لمصر أول ما تعرضت له من ذلة على يد أجنبى ، ولقد كان انتقام المصريين

منهم على قدر ما أحسوه من مرارة ظلت فى نفوسهم لم يقض عليها الزمن . وقد دخل الهكسوس إلى مصر من سيناء قادمين من آسيا خلال حكم الأسرة الثالثة عشرة وبدءوا يستقرون فى شرقى الدلتا منذ أواسط أيام هذه الأسرة ، ونجح آخر ملوك الأسرة السابعة عشرة سقنزع وكامس وأول ملوك الأسرة ١٨ أحمس فى طرد الهكسوس من مصر .

الأسرة الثامنة عشرة : (١٥٧٠ - ١٣٠٤ ق . م)

أدرك ملك (خيتا) فى عهد الفرعون أمنحوتب الثالث أنه لن يستطيع تحقيق أطماعه فى آسيا ما دام النفوذ المصرى قوياً فأخذ يؤلب بعض الأفراد الآسيويين ليشقوا عصا الطاعة على مصر ، وأخذت المدن تستغيث بفرعون مصر ، وأخذوا يرسلون له الرسائل والرسل ، وكانت آخر رسالة منهم تقول (والآن فإن مدينتك تونيب تبكى ودموعها تسيل ولا ناصر لنا لقد أرسلنا عشرين رسالة إلى مولانا ملك مصر ولم نتلق رداً منه) كما كشفت هذه الرسائل عن وجود خطر آخر يتمثل فى وجود قبائل سامية تسمى قبائل الخابيرو وفى بعض الآراء أن هذه القبائل أطلق عليها فيما بعد (العبرانيين) وكانوا قبائل من البدو المقيمين فى شرقى الأردن يؤجرون أنفسهم للقتال ، واستعان بهم بعض الأمراء للاستيلاء على حصن (مجدو) الذى سبق أن فتحه تحوتمس الثالث .

ثم أخذوا يهددون أورشليم ، فسقطت بدورها ، وهكذا أصيب النفوذ المصرى بضربات قاصمة فى سوريا وفى مدن الساحل الفينيقى وفى أعلى الفرات وفى فلسطين ، وبعد أن انتهت أيام أخناتون تولى توت عنخ أمون ، تيسر للقائد (حورمحب) أن يقوم ببعض الجهود لاستعادة بعض ما فقدته مصر . وقد أصدر (حورمحب) عدة تشريعات بعد أن عقد معاهدة بينه وبين (مورسيل) الثالث ملك خيتا ضمنت له استقرار الأمور على الحدود ، وكان التشريع الأول خاصاً بالعقوبات التى توقع على كل من يعوق السفن التى تحمل الضرائب إلى خزائن الدولة ؛ وكان عقاب ذلك جدع الأنف والنفى إلى حصن ثارو على مقربة من القنطرة .

حتشبسوت : (١٤٩٠ - ١٤٦٩ ق . م)

اتصلت حتشبسوت بشبه جزيرة سيناء خلال نشاطها لإصلاح ما خربه الهكسوس فى أثناء زحفهم على أقاليم مصر ، ومن آثار نشاطها إعادة فتح المناجم فى سرابيت الخادم، وقد عثر هناك على بعض الفخار الملون الذى يحمل اسمها واسم تحوتمس الثالث .

تحوتمس الثالث : (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق . م)

نقرأ فى أخبار حملة تحوتمس الأولى وكانت فى العام الثانى والعشرين من حكمه أى فى العام الأول

من انفراده بالحكم أنه غادر حصن ثارو (على مقربة من القنطرة) فى طريقه إلى فلسطين ، فوصل إلى غزة بعد ٩ أيام وهذا يعتبر سيرا سريعا لجيش يقطع الصحراء لم تكن لديه وسائل النقل الميكانيكية إذ أن المسافة تزيد على ٢٨٠ كم .

أمنحوتب الثانى : (١٤٣٦ ١٤١١ ق . م)

وجه أمنحوتب الثانى حملتين إلى آسيا فاخترقتا سيناء لتأديب مملكة (ميتانى) وكانت الحملة الثانية فى السنة التاسعة لحكمه ، وكانت تفتيشية أكثر منها حربية لأن الثورة التى قيل عنها إنها قامت فى فلسطين لم تكن سوى فتنة محلية صغيرة فى إحدى المدن ، وأحضر هذين الحملتين فى نوعين شهيرتين إحداهما فى الكرنك والأخرى عثر عليها فى (منف) عام ١٩٤١

أمنيوفيس الثالث : (١٤٠٥ ١٣٧٠ ق . م)

تعددت آثاره حدود وادى النيل ، فصنعت طور سيناء ، وعثر له هناك على لوحين من حجر يؤرخ أحدهما عامه الثالث والثلاثين ، ويشير إلى أنه بعث الى سيناء بحملة تحت إمرة أحد من كبار رجاله لاستخراج الفيروز من مناجمها . كما وجدت له هناك آثار من منشآت وفخار منقوش .

الأسرة التاسعة عشرة (١٣٠٤ – ١١٩٥ ق . م)

رمسيس الأول . (١٣٠٤ - ١٣٠٣ ق . م)

عندما انخرط فى سلك العسكرية متأثراً بحياة أبيه سيتى وسيرته لم يمت حتى وصل إلى منصب قائد لفيلق الرماة ، وأصبح حارساً لحدود مصر الشرقية وجعل مقامه فى قلعة ثارو (القنطرة) .

سيتى الأول : (١٣٠٣ ١٢٩٠ ق . م)

قضى هذا الملك سنوات شبابه وهو يعمل ضابطاً فى الجيش وحاصة فى حصن – ثارو – على حدود مصر الشرقية . وفى أول أيام حكمه فوجئ بقيام ثورة وراء هذه الحدود فأسرع لإخمادها ، كان العمرانيون يسعون للسيطرة على فلسطين واستخلاصها من كيد الإمبراطورية ، فأخذوا يدبرون الفتنة بين قبائل البدو لتثور على فرعون ، وقد ترك لنا سيتى الأول أخبار تلك الحملة وانتصاراته على جدران معبد الكرنك ، ومنها نعرف أنه عندما علم بخبر تجمع القبائل البدوية تحت قيادة زعمائهم وعيثهم فى الأرض فساداً عد ذلك خروجاً منهم على قوانين النصر وسره أن يخرج إليهم للقصاص على ثورتهم ، كما رسم لنا فيها الحصون التى أعادها إلى حظيرة الطاعة بعد أن هرم بدو سيناء وجنوبى فلسطين (الشاسو) وهى

حصون التي كانت تمتد من القنطرة حتى رفح .

وكان هذا الطريق (طريق حورس) أو (الطريق الحربي الكبير) أقدم طريق حربي عرفه العالم ، ولم تقتصر أخبار الحملة وتصوير مراحلها في تكرنك على القول والحكاية ، بل صورها ورسم مراحلها كما صور بعض الحصون التي حددها ، واتخذها معاقل تمويل الجيش ومركزاً لمواصلة زحفه ، وتحركت جيوش الفرعون تحت إمرته من قلاع تارومتحهة إلى أرض كنعان . فبقيت في طريقها قبائل البدو الذين كانوا يحركون الثورة بين مصر وبلاد الشرق ، فقضى عليهم وكان هذا أمراً ضرورياً لحماية ظهر الجيش المصري في أثناء زحفه إلى ديار الكنعانيين وما وراءها من بقية أقاليم فلسطين . وقد أراد سيتي الأول بذلك أن يعيد لمصر مجدها القديم ، فقاده مع جيشه إلى فلسطين ، وعلم أن السكان الذين شقوا عصا الطاعة تؤازرهم وتحرضهم مملكة (حيتا) تجمعوا في بيسان ، وأن بعضهم تجمع في بلد يسمى حمة (غير مدينة حمة السورية) . وبعضهم ثالث في بلدة (يعم) ، فأرسل إلى كل من هؤلاء فرقة من فرق جيشه ، فقضت عليهم بسهولة قبل أن يتجمعوا في مكان واحد ، ودانت له فلسطين وفينيقيا والجزء الجنوبي من سوريا وخاصة القلع ومدينة قادش .

طريق سيتي الأول

غمر بدو الصحراء سوريا وفلسطين ، وكان المصريون يطلقون عليهم اسم (الشاسو) ، وهو اسم عام تعت به المصريون عرب آسيا جميعاً ، ولم يكن لهم جيوش منظمة ليستطيعوا أن يعيشوا بها غارتهم ، ولم يكن لهم كذلك من سلاح الحرب ما يمكنهم من ملاقاة الجيوش المنظمة ، ولم يتح لهم مطلقاً أن يعبئوا جيوشاً يقوون بها العدو في تلك الصحراء الواسعة وما كانوا قادرين على تعبيد الطرق التي تسلكها الجيوش في مجاهل الصحراء ، ولعلهم لم يروا مثل هذه الطرق إلا بعد أن سلكتها جيوش مصر تحت إمرة بطل استقلالها (أحمس الأول) وهو يطرد بها الهكسوس . وإلا بعد أن عبر (سيتي الأول) ذلك الطريق الحربي العظيم الذي يبدأ من (سيلة) (ثارو) عند القنطرة (بين بحيرتي البلح والمنزلة) مارّاً بالعريش ثم رفح إلى غزة ، وسوف نرى كيف أن سيتي قد أعد هذا الطريق ونظمه ثم جهزه بآبار لأجل الجيش بحيث تستطيع الجيوش المصرية وقوافل السلم أن تعبر الصحراء من مصر إلى فلسطين في سهولة ويسر وقد صورت أخبار حملة سيتي الأول على جدران معبد الكرنك مواقف الفرعون عند الحصون والمعاقل وآبار الماء التي نثرها من نظموا له الطريق إلى الشرق استعداداً لزحفه ، ولست أعتقد أنه مشى جميعه ، وإنما الراجح أن أكثره كان موجوداً منذ أيام أسلافه الذين ركبوا من قبله ذلك الطريق في قلب تلك الصحراء الجرداء التي من الشمال من شبه جزيرة سيناء . وقد أعاد سيتي الأول تعبيد هذا الطريق وجدد حصونه بعد أن تهدم أكثرها وفتح آباراً بعد أن عطلت في فترة الركود الحربي

والسياسى والاقتصادى الذى أصاب مصر فى أعقاب ثورة الانقلاب الدينى الذى وقع فى أيام (أخناتون) .

والواقع أن ذلك الطريق بين مصر وفلسطين يرجع إلى عهد بعيد إلى أيام الدولة الوسطى ، فقد جاء ذكره فى قصة (سنوحى) المعروفة وهو بعينه ذلك الطريق الذى كان يركبه الغزاة ممن هجموا على مصر أيام محنتها السياسية وركبه الهكسوس عندما غزوا مصر ، وركبوه مرة أخرى عند خروجهم منها وركب فى إثرهم (أحمس الأول) بجيوشه الظافرة التى حررت مصر من نير الهكسوس . وركبه خلفاؤه من الأبطال الذين بنوا مجد مصر الحربى والسياسى ، وتزعموا تلك الحركة السياسية المباركة حركة بناء الكتلة الشرقية فى حوض البحر الأبيض الجنوبى ، ورأس الطريق عند قلعة (ثارو) التى عرفت أيام الرومان (باسم سيلة) وهى مجموعة من حصون كانت قد أقيمت منذ زمان بعيد لصد إغارات البدو عند حدود مصر الشرقية . وتعد قلعة (ثارو) هذه من أقوى الحصون وأمنعها . وموقعها على قناة كانت تدعى القاصلة لأنها تفصل بين مصر والصحراء وهى قناة مصرية كانت تستمد ماءها من النيل وينتشر على ضفتيها العشب وتسبح فى الأخوار المنتشرة من حولها التماسيح .

والشىء الذى يسترعى النظر حقا هو أن بناء القلعة من الناحية التى تواجه مصر يتكون من سور مستطيل تكتنفه من الشمال والجنوب أبنية مختلفة ، وله من هذه الناحية بابان ينفتح أحدهما إلى الشرق ويؤدى إلى قنطرة فوق القناة ، وتلك المنطقة ما زالت حتى يومنا هذا تحمل اسم القنطرة التى غادرها سيتى ليصل بعدها إلى حصن مستطيل البناء يدعى عرين الأسد ، ولاشك فى أن المقصود بالأسد فى هذه التسمية هو فرعون ، وأن ذلك الحصن هو الذى عرف فى زمان رمسيس الثانى باسم (معقل سيس) (معقل رمسيس الثانى) ، ثم يلى ذلك الحصن حصن آخر يقال له (حصن سيتى) ويزعم العالم البريطانى (جاردنر) أن موضع الحصن فى المكان المعروف اليوم باسم (تل الحر) ، ويلى ذلك محط آخر سمى فى زمان رمسيس الثانى (سيس) أى أن رمسيس الثانى قد خلع اسمه على ذلك الحصن بعد وفاة أبيه ، ويزعم العالم البريطانى المذكور أن موضع ذلك الحصن كان عند (القاطية) الحالية . والواقع أن أوفى دراسة لتاريخ ذلك الطريق الحربى بما كان يتصل به من حصون وقلاع وآبار هو ما كتبه العالم المذكور تحت عنوان (The Military Rood Between Egypt and Palistien J E A Vol VI c 1920 PP 99 ff) ، ويبلغ طول الطريق نحواً من مائة وعشرين ميلاً من القنطرة إلى رفح ، وهو طريق كان يركبه المحاربون من آل فرعون فى عصور مختلفة ، ثم ركبه الاستعمار الأوربى فى العصر الحديث لغزو فلسطين وما جاورها من أقطار الشرق بين عامين ١٩١٤ ، ١٩١٨ .

ولا يملك المؤرخ من أبناء هذا الوادى إلا أن يفخر بعبقرية لفرعون ممن أنشئوا ذلك الطريق وركبوه فحاربوا وظفروا وعمروا ثم أنشئوا تلك الكتلة العظيمة فى حوض البحر ، ثم جعلوها تتحدى كل قوة حربية وسياسية فى دنياهم الزاخرة ولا يسع امرء من أبناء هذا الوطن إلا أن يطلق العنان لخياله ليرى

جيش مصر وهو يغادر الحدود ليركب هذا الطريق إلى فلسطين فيضرب الثائرين من زعمائها ويرى أمراء ذلك الجيش وقواده يهتفون لذلك الزميل القديم الذى عاشرهم جندياً بالأمس ، ثم جاءهم اليوم ملكاً يقودهم إلى ميدان النصر ليحققوا هنالك زعامة مصر الحربية والسياسية والاقتصادية فى ذلك العالم المعروف فى الشرق القريب . ولقد كانت (ثارو) فى أيام (حورمحب) أشبه شيء بمعاقل الطور ينفى إليها المجرمون وموقعها الآن فى المكان المعروف باسم (تل أبى صيفة) عند القنطرة .

رمسيس الثانى : (١٢٩٠ – ١٢٢٣ ق . م)

واجه رمسيس الثانى فى السنة الرابعة من حكمه تمرد مملكة (خيتا) وتحريضها بعض الأمراء على الثورة والعصيان . فقاد حملة إلى آسيا لتوطيد النفوذ والاطمئنان على حاميات الموانى وخطوط المواصلات ، ومرة ثانية فى السنة الخامسة من حكمه عبأ جيوشه وسار بها لسحق جيوش خيتا التى ألبت الكثير من سكان سوريا ضد مصر ، وتجمعت فى قادش لصد الجيوش المصرية التى كانت فى طريقها إلى هناك ، ولم يترك (موتلى) ملك (خيتا) فى ذلك الوقت أى وسيلة من الوسائل إلا اتخذها ليجعل من مقابلته لجيش مصر ضربة قاضية لنفوذ مصر وسيادتها فى آسيا . وسارت جيوش رمسيس فى الطريق الحربى القديم عبر سيناء ووصل بها إلى وادى نهر العاصى .

ولم يمض عامان على معركة قادش حتى كانت فلسطين قد ثارت بأسرها ، وامتدت الثورة حتى وصلت إلى حدود مصر وسارع رمسيس الثانى إلى إخماد الفتنة ، وأعاد كل فلسطين إلى حظيرته وبعض بلاد الأمويين ، وكانت هذه الحملة حملة العام الثامن من حكمه سبباً فى ذيوع اسمه كأحد الفراعنة المحاربين الذين حافظوا على الإمبراطورية التى ورثها عن تحتمس الثالث .

منفتاح : (١٢٢٣ – ١٢١١ ق . م)

خرج اليهود من مصر فى عهد منفتاح ابن رمسيس الكبير وفى سيناء خالفوا صاحبهم ونبيهم موسى وعبدوا عجلاً من ذهب ، وطلبوا العودة إلى مصر للتمتع بخيرها والعكوف على أصنامهم التى ألفوا عبادتها . ومن الثابت فى تاريخ مصر – بناء على ما جاء فى كتب السماء من ناحية وما شهدت به آثار الفراعنة من ناحية أخرى أن العبرانيين قد عرفوا مصر منذ أيام الدولة الوسطى على الأقل وكانوا يجيئونها أول الأمر لاجئين يطلبون الرزق فى أرضها ثم يجيئونها أسرى فى ركاب فرعون كلما عاد من حروبه فى أقاليم الشرق ظافرا منصوراً .

الأسرة العشرون (١١٩٥ – ١٠٩٠ ق . م)

ست نخت : (١١٩٥ - ١١٩٢ ق . م)

وجد اسم هذا الملك مسجلاً على صخور سيناء ، ومن المحتمل أن يكون قد زار تلك المنطقة فى أثناء مطاردة الآسيويين الذين كانوا يملأون تلك البلاد فى ذلك العهد .

رمسيس الثالث : (١١٩٢ - ١١٦٠ ق . م)

فى العام الثامن من حكمه احتدت لشعوب الهندو أوروبية (شعوب البحر) بلاد خيتا وبلاد قدى (بلاد آسيا الصغرى وشمال سوريا) واحتلت كلكيا وقرص . واستولت على مدينة قرقميش على الفرات ، ولم يهمل رمسيس الثالث فى دفع هذا الخطر فاستعد له وجمع أسطولاً كبيراً كما جمع جيشاً كبيرا وسار لملاقاة عدائه الذين كانوا فى طريقهم إلى مصر من ناحية الشرق ونجح المصريون بعد صراع مميت فى القضاء على أسطول هذه الشعوب ، كما نجحوا أيضاً فى تمزيق الجيش البرى الكبير . ولم إنقاذ مصر من خطر مؤكد لم يكن يقل عن الخطر الذى تعرضت له عند غزو هكسوس إن لم يزد عليه ولم تنقذ مصر نفسها فقط بل انقذت غزى آسيا معها إذ أن فلول الأساطيل المعدية لم تقم لها بعد ذلك قائمة ولم يصبح لمن بقى حيا من جيوشهم أى كيان تاريخى . وتذكر المصادر التاريخية أنه قام بحملة آسيوية أخرى احترقت جيوشه فيها سيناء ، ووصل بحدود مصر إلى الفرات وهو حد كانت مصر قد فقدته منذ عهد طويل . وفى ميدان بتعدين جهز حملة بعث بها عن طريق البحر والبر إلى مناجم النحاس فى شبه جزيرة سيناء . فعاد رجاله قد وجدوا من النحاس حمولة يومئذ إلى ضيعة على ضفاف الفرات ولما عرض تحت نوافذ القصر وثروته أخذ يتلألأ ويسعد منه بريق يشبه بريق الذهب فيثير إعجاب الناظرين .

من الأسرة العاشرة والعشرين الى الحادية والثلاثين (٥٢٥ – ٣٣٢ ق . م)

الفرس (٥٢٥ – ٤١٥ ق . م)

جمع [illegible] جيشا كبيرا [illegible] مصر فسار بجيشه فى طريقه ، وكانت اول معركة تقابل فيها جيش الفرس جيش مصر عند [illegible] (تل الفرما) . وانضم الى مستأجرى المصريين وجنودهم تحت قيادة [illegible] جيوش الفرس فى (منف) [illegible] جيوش الفرس فى مصر فى السنة التى تسبق [illegible] (٤١٠ ق . م) [illegible] مصر ثورة كبيرة حدثت بمكان [illegible] [illegible] بحيرة [illegible] بمكان [illegible] آمون [illegible] ثم صبح [illegible]

البلاد ، وأسس الأسرة الثامنة والعشرين وكان ملكها الوحيد وبعدها حاول الملك الفارسى (أرتاكسر كسيس الثالث) الملقب (أوخوس) استرداد مصر عام ٣٥١ ق . م ، ولكنه باء بالفشل ، وفى المرة الثانية جمع جيشاً يزيد عدده على ٣٠٠,٠٠٠ وأسطولاً من ٣٠٠ سفينة ضخمة وهجموا على مصر من البر والبحر . فنجح فى احتلال (منف) وفى عام ٣٤١ ق . م نجحت الحملة الفارسية الجديدة فى إتمام فتح مصر . ومرة أخرى تجددت الثورات فى مصر التى لم تَحْنِ هامتها بقيادة أحد أمراء الدلتا ويسمى (خباشا) ولم يدم احتلال الفرس الثانى لمصر أكثر من ثمانية أعوام وكان نجم الإسكندر قد أخذ يظهر فى ذلك الوقت وشقت جيوشه طريقها إلى مصر .

خروج بنى إسرائيل من مصر :

عندما عاد موسى إلى مصر طلب من فرعون أن يأذن فى خروج بنى إسرائيل من أرضه فأبى ، وفى عام ١٤٩١ ق . م خرجوا بليل وساروا من مدينة رعمسيس إلى سكوت فايثام ففم الحيروث (على البحر الأحمر) ، وعندما حاول الفرعون أن يمنعهم لم يستطع ، ومن أهم الآراء التى تحدثت فى هذا الموضوع الرأى الذى يرى أنهم خرجوا فى عهد الأسرة التاسعة عشرة (منفتاح ابن رمسيس الثانى) وأن مدينة رعمسيس التى خرجوا منها هى الخرائب المعروفة بتل المسخوطة فى مديرية الشرقية ، وأنهم عبروا البحر الأحمر بالقرب من السويس ، وبعد أن نجح الإسرائيليون فى الوصول إلى سيناء ساروا ثلاثة أيام حتى وصلوا إلى عين ماء كانت مرة وكان أول تذمر للإسرائيليين .

وفى الشهر الثالث من خروجهم أنزل الله على موسى الوصايا العشر المدرجة فى سفر الخروج ، ثم أنزل عليه الشرائع .

وفى اليوم الأول من الشهر الأول من السنة الثانية لخروج بنى إسرائيل من مصر (١٤٩٠) ق . م أقام خيمة الشهادة ، وبعد أن أقام موسى فى الجبل الذى تلقى فيه الوصايا سنة إلا بضعة أيام خرج بقومه قاصداً أرض الميعاد . وقبل أن يعبر نهر الأردن أرسل رجلاً من كل سبط من أسباط إسرائيل ، الاثنى عشر وفيهم يوشع بن نون من سبط أفرايم وكالبُ بْنُ يفنة من سبط يهوذا للتجسس على الأرض ، فعادوا إلى قومهم وقالوا (حقاً إن الأرض تُفيض لبنا وعسلاً غير أن الشعب الساكن فى الأرض معتز والمدن حصينة عظيمة يسكنها العمالقة فى الجنوب والحيثيون واليبوسيون والأموربون فى الجبل ، والكنعانيون على البحر وجانب الأردن وليس لنا طاقة على حربهم) .

أما يوشع وكالب فقالا : لا ، بل فى طاقتنا حربهم ، ولكنَّ بنى إسرائيل جبنوا عن التقدم مع قول الأكثرية ، وبدأ عصر التيه الذى استمر أربعين عاماً .

وفى نهاية الأربعين عاماً استطاع الإسرائيليون الاستيلاء على المناطق التى شرق نهر الأردن ، وصعد

موسى إلى جبل «نبو» ورأى منه أرض الميعاد . وهناك مات ودفن وكان ذلك فى عام ١٤٥١ ق . م .

وخلف يوشع بن نون موسى فى قيادة الإسرائيليين . فعبر بقومه نهر الأردن إلى أرض كنعان وفتحها عام ١٤٥٠ ق . م .

مملكة النبط وسيناء :

حل النبط محل الأدوميين ، وأسسوا مملكة فى البتراء امتدت من دمشق الشام شمالاً إلى وادى القرى قرب المدينة جنوباً ، ومن بادية الشام شرقاً إلى خليج السويس غرباً فشملت شمال غربى حزيرة العرب وجزيرة سيناء .

واستخدم النبطيون طرق التجارة فى سيناء ، وعدنوا الفيروز فى وادى المغارة والنحاس فى وادى النصب ، وكانوا يزورون الأماكن المقدسة فى جبلى موسى وسربال ؛ كما سكن رهبان من البتراء دير سيناء فى صدر العصر المسيحى ، وكانت أبرشية فيران قبل بناء الدير تابعة لأبرشية البتراء ، وأول من ذكر النبط فى التاريخ كان ديودورس الصقلى ، وقد كتب عنهم عندما تحدث عن إغارة أنتيجونس سيد آسيا الصغرى على البتراء عام ٣١٢ ق . م وارتداده عنها بالفشل يقول : (إن النبطيين خلفوا الأدوميين فى بلادهم ، وأنهم عشرة آلاف مقاتل لا شبيه لهم فى قبائل البدو وإن بلدهم الوعر القاحل ساعدهم على التمتع بالحرية والاستقلال) .

وعندما التزم النبطيون بالحياد فى الصراع الدائر بين أنتيجونس وبطليموس الأول محافظة على تجارتهم مع كل من مصر وسوريا استاء أنتيجونس ونوى إذلالهم ، فدخل مدينتهم عنوة ، وامتلكها ، بعدها عاد النبطيون وثأروا من جنود أنتيجونس ، وعندما حاول مرة أخرى عجز جيشه عن دخول مدينتهم ، واستفحل أمر النبط بعد هذا النصر واتسع سلطانهم ولا سيما فى أثناء انحطاط مملكة البطالمة فى مصر والسلوقيين فى سوريا فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد وأنشأوا دولة منظمة حكمها الملوك . وفقاً للجدول التالى :

الحارث الأول	١٦٩ ق . م
زيد ابل	١٤٦ ق . م
الحارث الثانى الملقب إيروتيمس	١١٠ – ٩٦ ق . م
عبادة الأول	٩٠ ق . م
ربيل الأول	٨٧ ق . م
الحارث الثالث الملقب فيلهلن	٨٧ – ٦٢ ق . م
عبادة الثانى	٦٢ – ٤٧ ق . م
مالك الأول	٤٧ – ٣٠ ق . م

عبادة الثالث	٣٠ – ٩ ق . م
الحارث الرابع الملقبُ فيلومتر	٩ ق . م – ٤٠م
مالك الثانى	٤٠ – ٧٥ م
ربيال الثانى الملقب سوتر	٧٥ – ١٠١ م
مالك الثالث	١٠١ – ١٠٦ م

وكان هذا آخر ملوك النبط ؛ فإن الرومان بعد استيلائهم على سوريا ومصر استمروا فى محاولة إدخال هذه البقعة من الأرض تحت سلطانهم حتى نجحوا فى عام ١٠٦ م فى عهد الإمبراطور تراجان ، وأصبحت البتراء ولاية رومانية ، ولم يقم للأنباط بعدها قائمة .

وقد اختلف المؤرخون فى أصل النبط ، فقال فريق : إنهم آراميون ؛ وقال فريق آخر : إنهم عرب : أما القائلون بأنهم آراميون فحجتهم أن لغة النبط آرامية ؛ أما القائلون بأنهم عرب فحجتهم أن مؤرخى اليونان واليهود الذين كتبوا عنهم سموهم عرباً كما أن النبط اختاروا أسماء لملوكهم كلها عربية محضة كالحارث وعبادة وربيال ومالك وجميلة ، ويؤخذ من تاريخ مصر للمؤرخ الإنجليزى شارب أن النبطيين هم الأدوميون أنفسهم . فقد كانوا يسمون أدومين ، ثم فقدوا هذا الاسم بعد أن استولى اليهود على أدوميا فسموا أدومى الصحراء نباووث أو النبط .

سيناء فى العصر البطلمى
(اليونانى)

خلال العصر اليونانى (البطلمى) فى مصر كما فى كل عصورها شهدت سيناء حركة مستمرة للجيوش سواء فى طريقها لغزو مصر أو خارجة من مصر لحروب فى سوريا وفلسطين أو لجيوش عائدة منتصرة أو منسحبة من معاركها فوق هذه الأرض التى كانت مصر فى عصر البطالمة ترى أنها درعها لمواجهة محاولات الغزو الخارجية والتى تحقق لها الأمن .

وصل الإسكندر بلوز يوم (الفرما) فى خريف عام ٣٣٢ ق . م ، ومنها اتجه جنوباً على امتداد الفرع البيلوزى للنيل حتى وصل إلى ممفيس ، وهناك تسلم البلاد من مازاكس الوالى الفارسى على مصر . واستقبله المصريون بالترحاب استقبال البطل المنقذ لهم من الحكم الفارسى الغاشم وخاصة أن المصريين كانوا قد ألفوا الإغريق كأصدقاء ، وكثيراً ما ناصروهم فى ثوراتهم ضد الفرس .

وكان الإسكندر بعد أن استولى على آسيا الصغرى وانتصاره فى معركة إيسوس ٣٣٣ ق . م لم يحاول تتبع الملك الفارسى المنهزم شرقاً تجاه عاصمته صوصة ؛ وإنما انحدر جنوباً ليستولى على سوريا وفلسطين بعد معارك عنيفة عند صور وغزة ، ويرجع المؤرخون أن اتجاه الإسكندر الغريب فى عدم تتبعه الملك الفارسى المنهزم والقضاء عليه نهائياً إلى عبقريته العسكرية فى أنه أراد محاصرة الأسطول الفارسى القوى عن طريق الاستيلاء على جميع السواحل فى شرقى البحر الأبيض المتوسط التى يمكنه أن يلجأ إليها .

ويرى بعض آخر من المؤرخين أن شهرة مصر كمصدر هام للغلال لها دخل كبير فى توجيه خطة الإسكندر إلى هذا الاتجاه ، إذ يمكنه استخدامها كقاعدة لتموين المدن اليونانية من ناحية ، وتموين جيوشه الغازية المتجهة شرقاً من ناحية أخرى .

وبعد وفاة الإسكندر المفاجئة عام ٣٢٣ ق . م فى بابل وتقسيم الإمبراطورية الواسعة التى تركها بين القادة كانت مصر من نصيب بطليموس الأول (سوتير) .

بطليموس الأول (سوتير) ٣٢٣ – ٢٨٤ ق . م

عرف بطليموس حقيقة الصراع الدائر بين القادة ورثة الإسكندر وحقيقة موقفه ، وحدد هدفه بتأمين سلطانه فى مصر .

ومن أجل تحقيق هذا الهدف رأى أنه من الأصلح أن يخضع لسلطانه بعض المناطق المجاورة على الحدود الشرقية والغربية ليمنع أو ليحد من احتمالات غزو مصر فجأة عن طريق البر ، وأن يمد مناطق نفوذه إلى بحر إيجة ، وخاصة الجزر لتكون بمثابة نقط أمامية تسهل له السيطرة على البحر . وبقيت هذه الأسس التى وضعها بطليموس الأول للسياسة الخارجية كما هى فى عصر خلفائه .

حملة برديكاس : ٣٢١ ق . م

قاد برديكاس أحد القادة المناوئين لبطليموس حملة إلى مصر لتأديبه ، لأنه حالف القادة الثلاثة أنتيباتروس (حاكم مقدونيا واليونان) وأنتيجونس (حاكم فريجيا الكبرى فى آسيا الصغرى) ولوسيماخس (حاكم طراقيا) ضده .

ويفشل برديكاس فى مصر ، ويعجز عن عبور النيل ، ويتآمر عليه ضباطه ويقتلونه عام ٣٢١ ق م وتفشل الحملة بأسرها .

حملة بطليموس الأول : ٣١٩ ق .م

قاد بطليموس الأول هذه الحملة للاستيلاء على سوريا الجنوبية ليطرد منها يومينيس قائد برديكاس .

ويتعقد الموقف نتيجة خلافات بين القادة اليونانيين على إعادة اقتسام الإمبراطورية الفارسية ، ويتكون تحالف جديد من بطليموس ولوسيماخس وكاساندروس ضد أنتيجونس الذى نجح فى هزيمة يومينيس والاستيلاء على الإمبراطورية الفارسية ما عدا مصر . وتنشب الحرب بين الطرفين وتستمر من ٣١٥ ق . م حتى ٣٠١ ق .م وينجح أنتيجونس فى غزو سوريا ويرد بطليموس إلى داخل الحدود وراء غزة .

ويعاود بطليموس الأول بعد الاستيلاء على قبرص ، فيشن هجوماً جديداً على سوريا الجنوبية ، وينتصر على ديمتريوس بن أنتيجونس والى سوريا انتصاراً ساحقاً فى موقعة غزة ٣١٢ ق . م ويتابع بطليموس تقدمه ليستولى على فلسطين وفينيقيا .

ويعود ديمتريوس لينتصر على جيوش بطليموس فى شمالى سوريا عام ٣١١ ق . م ومرة أخرى ينسحب بطليموس من فلسطين ويعود الموقف فى العالم اليونانى للتشابك بعد اتفاق للقادة على إعادة

تقسيم تركة الإسكندر الأكبر.

ويقرر أنتيجونس الذى أعلن نفسه ملكاً عام ٣٠٦ ق.م عقب هزيمة أسطول بطليموس فى سلاميس محاولة إخضاع منافسيه الذين أعلنوا أنفسهم ملوكاً هم أيضاً رداً على هذه الخطوة ، فيجهز جيشاً برياً وبحرياً ، وفى تصوره أنه سوف يكسب حرباً فى مصر ضد بطليموس ، ويستولى على مصر ذاتها ، وفى شتاء عام ٣٠٦ ق.م يتحرك الجيش البرى بقيادة أنتيجونس والبحرى بقيادة ابنه ديمتريوس ، وتتجه قوات أنتيجونس من جنوبى سوريا عبر سيناء للوصول إلى مصر ، ولكنه يفشل فى الاستيلاء على بلوزيوم (الفرما) ، ويفشل ديمتريوس فى اقتحام النيل وينسحبان من مصر قبل أن يهلكا مع قواتهما.

وتعود جيوش بطليموس للمرة الثالثة للاستيلاء على سوريا الجنوبية مخترقة سيناء . ، ولكن إشاعة وصلت بطليموس عن انتصار لأنتيجونس دفعته إلى أن يعود من نفس الطريق منسحباً إلى داخل مصر ، ويعود بطليموس للمرة الرابعة لاحتلال سوريا عقب معركة إيسوس مباشرة بعد أن يكتشف كذب الإشاعة التى وصلته وانتصار حلفائه على أنتيجونس بعد قتله.

بطليموس الثانى : (فيلاد لفوس) ٢٨٤- ٢٤٦ ق . م

نشبت فى عصره حربان سوريتان لأن الأمر فى سوريا لم يكن قد استتب بين الأسرة السلوقية التى كانت سوريا من نصيبها طبقاً للتقسيم الذى حدث عقب مقتل أنتيجونس ، بينها وبين بطليموس الذى سارع بإعادة الاستيلاء عليها.

الحرب الأولى : ٢٧٦ ق . م

تقدمت القوات المصرية شمالاً واحتلت دمشق ولكنها تطرد منها وتبقى فى فينيقيا.

الحرب الثانية : ٢٦٢ ق . م

وفيها لقيت الجيوش المصرية بعض الهزائم حتى تم الصلح بين بطليموس الثانى وأنتيوخس ، وتم الاتفاق على أن يتزوج أنتيوخس برنيقة ابنة بطليموس.

بطليموس الثالث : (يوار حنليس) ٢٤٦ ٢٢١ ق.م

انتهى أمر الزواج بين برنيقة وأنتيوخس بقتل أنتيوخس فى ظروف أدت إلى الشك فى زوجته الأولى لاوديقة ونشب صراع على العرش بين الزوجتين كل منهما تريد العرش لابنها ، فقتلت لاوديقة برنيقة وابنها ، فيخرج بطليموس الثالث شقيق برنيقة على رأس الجيش المصرى عام ٢٤٦ ليحتل سوريا

الشمالية وكيليكيا ، ويعبر الفرات ويصل إلى مدينة سليوفيا على نهر الدجلة دون مقاومة ، وتنشب فى مصر أزمة داخلية بسبب حدوث مجاعة فيضطرون للعودة لمواجهة الأزمة .

بطليموس الرابع : (فيلوباتور) ٢٢١- ٢٠٥ ق . م

راودت الملك السلوقى أنتيوخس الثالث فكرة الاستيلاء على سوريا الجنوبية لعلمه بضعف الملك المصرى وفساد القصر الملكى ، ولم تكتمل محاولته الأولى عام ٢٢١ ق . م وفى المحاولة الثانية عام ٢١٨ ق . م تحرك بجيشه جنوباً إلى سوريا الجنوبية وفى سهولة إلى فينيقيا وسار جنوباً حتى استولى على غزة دون مقاومة تذكر .

وتحرك بطليموس الرابع على رأس جيشه الذى ضم جنوداً من الفلاحين المصريين لأول مرة فى العصر البطلمى عبر سيناء ، ودارت المعركة بالقرب من مدينة رفح فى ٢٢ يونيو عام ٢١٧ ق . م وكان للجنود المصريين الفضل الأكبر فى كسب المعركة برغم فرار الملك وهزيمة فرسانه .

واحتفظت مصر بسيادتها على سوريا الجنوبية بما فيها فينيقيا وفلسطين .

بطليموس الخامس : (إبيفانس) ٢٠٥- ١٧٠ ق . م

فى عصر هذا الملك الطفل وقبل أن يبلغ سن الرشد ثار أيلبوليموس قائد حامية بلوزيوم ، ولما انضمت إليه الإسكندرية سار إليها وسط ثورة الشعب وتأييده له ، وألقى القبض على الأوصياء الذين قتلوا الملكة وزيفوا وصية الملك ، ولكن ضعف هذا القائد أدى إلى عزله ، وتولى أرستوميتس محله ، وتستغل الدول الأجنبية هذا الضعف فينقض أنتيوخس الثالث على سوريا الجنوبية ، ويزحف جنوباً حتى تسقط غزة فى يده ٢٠٢- ٢٠١ ق . م وتتغير القيادة العسكرية ويعين أسكوباس ، فيسترد غزة . ويطرد الجيش الغازى من فلسطين .

ويعود أنتيوخس ويكتب له النصر على سكوباس فى معركة بانيون شمالى فلسطين ٢٠٠ ق . م وتنتهى سيادة مصر على سوريا الجنوبية نهائياً .

بطليموس السادس : فيلومينور ١٧٠- ١٤٥ ق . م

فى عصره يتحرك أنتيوخس الرابع ليغزو مصر ١٧٠ ق . م مستغلاً سوء الأحوال الداخلية وسيطرة الأوصياء . ويزحف من فلسطين إلى مصر التى تنهار أمامه فى الحال حتى إنه استولى على بلوزيوم وممفيس دون مقاومة تذكر ، ويحاول بطليموس السادس الهرب فيقع أسيراً فى يد الملك السورى ، وتنشب ثورة فى الإسكندرية تطيح بكل نصحاء الملك ، وتعلن الأخ الأصغر لبطليموس السادس ملكاً ، ويقوم سفراء من اليونان بالوساطة مع الملك السورى ، فينسحب من مصر تاركاً بطليموس السادس يحكم من

ممفيس . والأخ الأصغر يحكم من الإسكندرية ، ولكنهما يصلان إلى اتفاق يصبحان بمقتضاه ملكين بالاشتراك .

ويعود أنتيوخس لشن حرب جديدة عام ١٦٨ ق . م ، ويتمكن من محاصرة الإسكندرية وتتدخل روما ، فينسحب من مصر وتتحرك الأحداث ويحكم بطليموس السادس مصر منفرداً . ويحاول الاستيلاء على سوريا مستغلاً النزاع الأسرى فى الدولة السلوقية ، وينجح فى الاستيلاء عليها . ولكن تدور عليه الدائرة ويسقط قتيلاً فى أرض المعركة فى فلسطين عام ١٤٥ ق . م .

كليوباترا السابعة ٥١ – ٣٠ ق . م

أوصى بطليموس الزمار عام ٥١ ق . م بعرشه فى مصر لكبرى بناته التى كانت تبلغ من العمر ١٨ عاماً ولأكبر أبنائه بطليموس الثالث عشر الذى كان يصغر أخته . وبعد وفاته أرغم الأوصياء كليوباترا على الفرار بعد اتهامها بالرغبة فى الانفراد بالحكم ، فهربت إلى الحدود الشرقية حيث جمعت لنفسها جيشاً من القبائل السامية ، وتأهبت للزحف على الإسكندرية لاسترداد عرشها ، ولكن الأوصياء أعدوا لبطليموس الصغير جيشاً رابط على مقربة من بلوزيوم (الفرما) ليسد الطريق على كليوباترا .

وفى هذه الأثناء وصل قيصر إلى الإسكندرية عام ٤٨ ق . م فعاد الملك والملكة إلى المدينة للحكم بينهما .

ويسفر اللقاء عن قصة غرام بين قيصر وكليوباترا ، وبعد مصرع قيصر يقع أنطونيو عريمه فى هوى الملكة الفاتنة ، ويشب مرة أخرى صراع على السلطة فى الإمبراطورية الرومانية ، ويقتحم أكتافيوس (أغسطس) الحدود الشرقية لمصر ، ويستولى على بلوزيوم ، ويتابع سيره إلى الإسكندرية للقضاء على أنطونيو وكليوباترا .

وفى الأول من أغسطس عام ٣٠ ق . م يتحقق له فتح مصر ، وينتهى بذلك العصر البطلمى ليبدأ العصر الرومانى .

وكانت مصر آخر قطر من أقطار البحر المتوسط يقع فى أيدى الرومان .

سيناء فى العصر الرومانى

كان لبيلوزيوم مكانة كبيرة فى العصر الرومانى لاحتلالها موقعا بريا خطيرا ، فرابطت بها حامية عسكرية ، وجرى تشييد قلاع على امتداد الطريق الساحلى المؤدى إلى سوريا لمنع غارات العرب . ولا شك أن القلاع الحربية التى رابطت بها قوات من الفرق الرومانية أو الكتائب المساعدة لم تلبث أن جرى تشييدها على الحافة للدلتا على الطريق الذى يربط الفرما (ببلوزيوم) ببابليون ومنف عن طريق النيل وعلى الطريق الممتد من الفرما إلى القلزم (السويس) مجتازا سيرابيوم .

وفى عصر الإمبراطور جستنيان كانت الحدود تنتهى شرقا بين العريش ورفح ، وكان حد أوجستا منيكا من أهم الحدود من جهة آسيا على الرغم من أن هذه الجهات لم تتعرض للهجوم قبل القرن السابع الميلادى ، ومع هذا فإن الهجوم قد يحدث فى يوم من الأيام وإذا وقع فسوف يكون من أشد الهجمات خطورة .

وحدث فى عصر الإمبراطور أنستاسيوس الثانى أن توغلت بعض القوات الفارسية فى الدلتا حتى بلغت ضواحى الإسكندرية ، ولذا صار من المحتم حماية ما بالوجه البحرى من زراعات وافرة وإغلاق الطريق المؤدى إلى الإسكندرية فى وجه الهاجمين ، فجرى تحصين المدن الواقعة شرق حد أوجستا منيكا مثل القلزم (السويس) والعريش .

وما زالت بقايا أسوار العريش الضخمة قائمة حتى القرن الثانى عشر الميلادى .

ومن المواقع الحصينة أيضا بلوزيوم التى صمدت لحصار العرب خلال فترة السلام الممتدة ، وقد تعرضت الحدود المصرية لهجوم قامت به زينوبيا ملكة تدمر (فى الصحراء الغربية بين سوريا وبابل) التى لم تقنع بالمركز الممتاز لها فى الإمبراطورية الرومانية ولا بالثراء العريض وسعت أن تكون لها إمبراطورية وبعد أن بسطت سلطانها على الولايات الشرقية أرسلت إلى مصر جيشا ضخما عام ٢٦٩ عبر سيناء ، فاحتلها واستمرت مصر تحت سلطان زينوبيا وابنها حتى عادت من جديد إلى الرومان عام ٢٧١ ق . م .

وقد مرت مصر بفترة من الاضطرابات الدينية والثورات ضد الأباطرة الرومان فى الوقت الذى

كانت فارس تتحرك تحت حكم كسرى الثانى لتستعيد مجد الإمبراطورية الفارسية القديمة ، فتحرك جيشها غربا لاحتلال أنطاكيا وآخر جنوبا للاستيلاء على بيت المقدس . وبعد أن تم للجيشين تحقيق هدفهما كان الهدف التالى للجيش الجنوبى مصر ، ولما اقترب خريف ٦١٦ كان الاستعداد لغزو مصر قد تم وتولى (شاهين) قيادة الجيش الفارسى الموجه لفتح مصر ، وبدأت مسيرة من العريش إلى بلوزيوم التى لم تبد أى مقاومة للغزاة ثم إلى بابليون حتى وصلوا إلى الإسكندرية التى صمدت فى مقاومتها وتحتم على الفرس أن يحاصروها حتى سقطت بالخيانة والخديعة فى يونيو ٦١٨ ، وتم للفرس فتح مصر وانسحبت الحاميات البيزنطية من سائر البلاد ، وجلت عن مصر حتى انتصر هرقل الإمبراطور البيزنطى وعادت مصر إلى حظيرة الإمبراطورية البيزنطية .

سيناء فى العصر الإسلامى

فتح مصر :

بعد أن تم للمسلمين فتح بيت المقدس واتجاه عمرو بن العاص لحصار قيسارية طلب من الخليفة عمر بن الخطاب أن يأذن له فى فتح مصر ، وأوضح له أنها أكثر الأرض أموالا ، وأهلها أعجز الناس عن الدفاع عن أنفسهم وقال له : (وإنك إن فتحتها كانت قوة للمسلمين وعونا لهم) كما كان عمرو يخشى أن يؤدى بقاء مصر فى أيدى الروم إلى تهديد مركز العرب الجديد فى بلاد الشام وخاصة بعد أن لجأ بيت المقدس البيزنطى إلى مصر ، وأخذ يجمع الجند ويحشد الحشود تمهيدا لاسترداد بلاد الشام من العرب .

وانتهى الأمر بموافقة الخليفة على طلب عمرو وحشد له أربعة آلاف مقاتل ، ومضى عمرو بجيشه ولم تعترضه أحداث حتى بلغ رفح وتجاوزها فى الطريق إلى العريش ، وثمة قصة متواترة فى بعض مصادر التاريخ لا نستطيع القطع بصحتها مؤداها أن عمر بن الخطاب أرسل لعمرو كتابا قال فيه : (إنى مرسل إليك كتابا فإن أدركك قبل أن تدخل مصر فانصرف ، وإن دخلتها فأقصد واستعن بالله واستنصره) وتذكر الرواية أيضا أن الكتاب وصل إلى عمرو وهو برفح ، فرفض أن يتسلمه من الرسول حتى قارب العريش ليضمن أنه دخل أرض مصر .

ودخل عمرو العريش واحتلها دون مقاومة وفيها احتفل العرب بعيد الأضحى عام ١٨ هـ ، ١٢ ديسمبر ٦٣٩ م .

وتقدم عمرو ، فسقطت بلوزيوم فى يده فى يناير سنة ٦٤٠ م بعد حصار لم يستمر شهرا .

وكانت هذه المدينة القديمة التى على مسافة ميل ونصف الميل من البحر المتوسط وعند مصب الفرع البيلوزى للنيل تعتبر مفتاح مصر من جهة الشرق ، وتشرف على الطريق الممتد عبر الصحراء . ولما اطمأن عمرو بعد استيلائه على بلوزيوم لجأ إلى تأمين خط مواصلاته مع بلاد العرب وطريق العودة إذا حلت بجنده الهزيمة . بعدها اتخذ طريقه نحو الجنوب الغربى ، فسلك الطريق الذى يحاذى الحافة الشرقية للدلتا وهو الطريق الذى سبق أن سلكه الفرس حتى بلغ بلبيس ، بعدها مضى عمرو فى طريقه

حتى وصل إلى النيل ، ولحظتها أدرك تيودور القائد العام للقوات البيزنطية فى مصر أن تلك الحرب ليست غارة من غارات البدو بل حربا خطيرة .

وانتهى الأمر بفتح العرب لمصر .

وبسبب هجرة كثير من العرب المسلمين إلى الجزيرة وتخلف بعض المقاتلين بها تحول أهلها إلى الإسلام .

وشهدت سيناء طوال العصر الإسلامى قوافل التجارة من مصر وإليها ، وقوافل المهاجرين النازحين من الأرض العربية ، كما شهدت أيضا جيوش المسلمين وهى فى طريقها للخروج من مصر أو القدوم إليها .

ومر بها معاوية بن أبى سفيان عام ٣٦ هـ ، ٦٥٦ م فى طريقه إلى مصر بعد مقتل عثمان ، ولكن محمد بن أبى حذيفة والى مصر يتصدى له ويمنعه فى البداية قبل أن يلجأ معاوية إلى الخديعة حتى ينجح فى النهاية مستخدما مهارته السياسية فى القضاء على الحزب العلوى وعلى رأسه ابن أبى حذيفة الذى قتل بعد قليل .

ومر بها الأشتر النخعى بعد أن عينه على بن أبى طالب واليا على مصر ، فيواجه مؤامرة تنجح فى قتله مسموما عند القلزم ، وكان معاوية خلف هذه المؤامرة .

الدولة الأموية :

للمرة الثانية يقود عمرو بن العاص جيشا فى طريقه إلى مصر عام ٦٥٨ م ، ٣٨ هـ بتكليف من معاوية لقتال محمد بن أبى بكر الذى ولى مصر والذى ينتهى الأمر بهزيمته ومقتله ، وتصبح مصر ولاية للدولة الأموية وعمرو بن العاص واليا عليها مرة أخرى .

وعندما عين عبد الله بن الزبير الذى شق عصا الطاعة على الأمويين عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهرى نائبا عنه فى حكم مصر أرسل الخليفة الأموى مروان بن الحكم جيشا بقيادة ابنه عبد العزيز لطرد عامل عبد الله بن الزبير وتنتصر جيوش مروان وتنزل الهزيمة بابن جحدم .

الدولة العباسية :

عندما لم يستطع مروان بن محمد آخر الخلفاء الأمويين فى المشرق التغلب على الموقف العدائى الذى اتخذه المصريون منه أرسل جيشا كبيرا بقيادة حوثرة بن سهيل الباهلى الذى ولاه على مصر فيتمكن من القبض على اليمنية أعداء المعزية فى البلاد وقتلهم جميعا عام ٧٤٦ م ، ١٢٨ هـ . وعندما حلت الهزيمة بمروان بن محمد فى موقعة الذاب الأصغر بالعراق فر إلى الموصل ثم إلى حران وفلسطين حيث توالت عليه الهزائم فلم يجد أمامه سوى مصر ، فوصل إليها عبر سيناء ودخل الفسطاط ولكن العباسيين لاحقوه

وانتهى الأمر بمقتله عام ١٣٢ هـ ، ٧٤٩ م .

وأصبحت مصر ولاية عباسية منذ أوائل عام ١٣٣ هـ ، ٧٥٠ م . ولم تهدأ الأحوال فى مصر ، فقد خرج على الخلافة العباسية فى عهد الخليفة المهدى ١٥٨ – ١٦٩ هـ أحد أبناء البيت الأموى (دحية بن مصعب بن الأصبغ) ، وأرسلت الخلافة الجيوش عبر سيناء لمكافحته حتى انتهى الأمر بأسره . وضرب عنقه فى الفسطاط عام ١٦٩ هـ ، ٧٨٥ م .

الدولة الطولونية :

فى عام ٢٥٤ هـ ، ٨٦٨ م أتى إلى مصر أحمد بن طولون على رأس جيش مده به باكباك والى مصر المقيم فى بغداد وبهذا الجيش تغلب ابن طولون على منافسيه من كبار الموظفين ، وفى أثناء ثورة عيسى بن الشيخ ضد الخلافة فى بلاد الشام أنشأ ابن طولون جيشا مستقلا ، وخرج على رأسه قاصدا الشام لإخماد تلك الثورة .

ونجح ابن طولون فى أن يحول مصر إلى دولة طولونية .

وظل يسعى حتى قلده الخليفة بلاد الشام بعد أن زحف إليها على رأس جيوشه عام ٢٦٤ هـ ، ٨٧٧ م .

وخرج ابن طولون إلى الشام للمرة الثالثة عام ٢٦٩ هـ ، ٨٨٢ م ليواجه مؤامرة غلامه لؤلؤ الذى انضم إلى جيش عدوه المسمى بالموفق .

خلف خمارويه والده ابن طولون فى حكم مصر ، وانتهز الموفق أخو الخليفة المعتمد هذه الفرصة لاسترداد مصر والشام من قبضة الطولونيين ، فبادر خمارويه بإرسال جيشين إلى الشام بقيادة كاتب أبيه أحمد بن محمد الواسطى وسعد الأيسر وعزز هذين الجيشين بقوة بحرية ضخمة من السفن لتقيم بالسواحل الشامية .

واستولت قوات الموفق على الرقة وقنسرين ومضت فى بلاد الشام حتى استولت على دمشق ، وتقدمت جنوب الرملة تريد غزو مصر نفسها ، فأظهر خمارويه رباطة جأش كبيرة ، وخرج بنفسه إلى بلاد الشام وحلت الهزيمة بجيوشه فى أول الأمر فى موقعة الطواحين بين الرملة ودمشق ، ولكن الجيوش الطولونية استطاعت أن تعيد تنظيم صفوفها بقيادة سعد الأيسر ، وانتصرت على القوات العباسية وطردتها من الشام .

وكان خمارويه قد عاد إلى مصر بعد هزيمته الأولى ، فاستغل سعد الأيسر انتصاره فدخل دمشق واستولى عليها ، واستخف بخمارويه الذى بلغه النبأ ، فخرج إلى الشام عام ٢٧٢ هـ ، ٨٨٥ م ، وحارب سعد الأيسر حتى هزمه وقتله ، كما قاتل ابن كنداج حليف الموفق وأنزل به الهزيمة وطارده

ولم تنته متاعب خمارويه ، فقد بلغه مسير محمد بن أبى الساج عميل الموفق إلى مصر ، فخرج إليه وقاتله على نهر دجلة حتى هزمه عام ٢٧٦ هـ ، ٨٨٨ م .

الدولة العباسية للمرة الثانية :

عندما حاق الضعف بالدولة الطولونية فى مصر أرسل الخليفة العباسى المكتفى جيشا بقيادة محمد بن سليمان أمير دمشق للزحف على مصر ، وقاوم الطولونيون الغزاة ولكن تمكن محمد من دخول مصر وإحراق القطائع عاصمة الطولونيين ولم يسلم منها سوى جامع أحمد بن طولون عام ٢٩٢ هـ ، ٩٠٥ م وعادت مصر مرة أخرى إلى حظيرة الدولة العباسية .

وبعد أن نجح الخليفة المكتفى فى السيطرة على مصر قامت حركة بقيادة ابن الخليج (الخلنجى) للدعوة لإحياء الدولة الطولونية فشعر الخنيفة بخطرها ، فأرسل الجيش تلو الآخر لإخضاع هذه الحركة ، وتم له ذلك عام ٢٩٣ هـ ، ٩٠٥ م .

وواجه الولاة العباسيون فى مصر خطر الفاطميين فى شمالى أفريقيا ، وعندما لم يتمكن والى مصر أبو منصور تكين من وقف الغزو الفاطمى استنجد بالخليفة المقتدر ، فأرسل جيشا كبيرا بقيادة مؤنس الخادم الذى أنزل الهزيمة بجباسة قائد الجيش الفاطمى .

الدولة الإخشيدية :

أقام محمد بن طغج فى بادية الشام حتى اتصل بأبى منصور تكين والى مصر ، ولم يلبث أن أخذ نجمه يعلو بسرعة ، فقام بدور كبير فى طرد الفاطميين من مصر ٣٠٢ – ٣٠٧ هـ ، ٩١٤ – ٩١٩ م فضلا على جهوده فى حماية الحجاج من الأعراب والبدو الذين قطعوا طريق الحج عام ٣٠٦ هـ ، ٩١٨ م بين دمشق والحجاز فولاه الخليفة العباسى مصر .

وفى عام ٣٢٨ هـ ، ٩٣٩ م نشب الخلاف بين محمد بن طغج وابن رائق الطامع فى بلاد الشام ، فخرج على رأس جيشه قاصدا الرملة ودارت مناوشات خفيفة بين الفريقين وعقد صلح بينهما ، ولم يكد محمد الإخشيد يصل إلى الفسطاط حتى بلغه أن ابن رائق قد نقض الصلح ، وأنه بارح دمشق متجها صوب حدود مصر . فعاد الأخشيد مسرعا ليلتحم هو وجيش ابن رائق وأسر خمسمائة من رجاله .

وفى عام ٣٢٩ هـ – ٩٤٠ م توفى الخليفة الراضى العباسى وتولى أخوه المتقى الخلافة فأقر ابن طغج الإخشيد على مصر . وولى ابن رائق منصب أمير الأمراء ، ولكنه قتل بعد قليل ، عندئذ رأى الإخشيد الفرصة سانحة ليسترد بلاد الشام ، فخرج إليها مسرعا وكان هذا ثالث خروج له من مصر على رأس جيش عام ٣٣٠ هـ – ٩٤١ م ودخل دمشق ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن ثبت نفوذه فى بلاد الشام .

وللمرة الرابعة يخرج الإخشيد من مصر لمساندة الخليفة الذى استنجد به لمقاومة أمير الأمراء توزون عام ٣٢٢ هـ ، ٩٤٣ م وعندما حاول سيف الدولة الحمدانى بسط نفوذه على بلاد الشام أرسل الإخشيد جيشا بقيادة كافور إلى الشام ، وينتصر على سيف الدولة فى أول الأمر ، وعندما تبعهم أنزلوا به الهزيمة ، فخرج الإخشيد بنفسه للمرة الخامسة إلى الشام ، ودارت بينه وبين سيف الدولة حروب فى شمالى الشام لم ترجح فيها الكفة لأحد الطرفين حتى انتهى الأمر بالصلح ٣٣٤ هـ – ٩٤٥ م ، وبعد أن مات الإخشيد اغتنم سيف الدولة الحمدانى الفرصة وزحف على دمشق واستولى عليها ، عندئذ لم يتقاعس كافور عن حماية أراضى الدولة ، وخرج إلى الشام على رأس جيش كبير وصحبه أنوجور بن الإخشيد الصغير والذى خلفه فى حكم مصر وعمه الحسن بن طغج أخو الإخشيد ، وعند الرملة دارت موقعة كبيرة بين الإخشيديين والحمدانيين انهزم فيها سيف الدولة الحمدانى وفر شمالا إلى حلب ومنها إلى الرقة .

الدولة الفاطمية :

أرسل جوهر الصقلى حملة إلى الشام بقيادة القائد المغربى جعفر بن فلاح الكتامى للقضاء على بقايا البيت الإخشيدى ، فهزم الحسن بن عبيد الله بن طغج الإخشيد عند الرملة عام ٣٥٩ هـ ، ٩٧٠ م . وكان مصدر الخطر بالنسبة للفاطميين فى بلاد الشام بعد ذلك هم الحمدانيين والقرامطة ، وفعلا تمكن القرامطة من الاستيلاء على دمشق ٣٦٠ هـ ، ٩٧١ م . وأنزلوا الهزيمة بجعفر بن فلاح وقتلوه ، ولم يقنع الحسن بن أحمد قائد القرامطة بدمشق ذلك ، وإنما أراد غزو مصر نفسها ، فدخل الرملة وهجم على مدينة القلزم على رأس خليج السويس ، ومنها شق الصحراء حتى وصل عين شمس فى أوائل ٣٦١هـ – ٩٧٢م ، وصارت القاهرة على مرمى بصره ، فأسرع جوهر الصقلى بتحصينها وحفر خندقا حولها . ونتيجة لصموده وانتصاره انسحب الحسن بن أحمد من مصر إلى الأحساء ، ولكنه عاد بعد قليل ليعاود الهجوم على مصر برا وبحرا .

وعندما هدده المعز لدين الله الفاطمى لم يعبأ وأوغل فى الأراضى المصرية حتى مشارف القاهرة ٣٦٣ هـ ، ٩٧٤ م ، ودارت معركة هزم فيها القرامطة . واستغل الخليفة المعز الموقف وبادر بإرسال جيش إلى الشام لمطاردة القرامطة وإعادتها إلى حوزة الدولة الفاطمية . وفشل الجيش نتيجة الصراع مع الدمشقيين ودخول الأتراك بزعامة أفتكين التركى بلاد الشام ومعاونة الحمدانيين لأفتكين ، فخرج جوهر الصقلى إلى الشام بتكليف من الخليفة العزيز بالله عام ٣٦٥ هـ – ٩٧٦ م .

وانتهت حملة جوهر بالعودة بعد صلح بشروط مهينة ، فسار الخليفة العزيز بنفسه إلى الشام على رأس جيش كبير عام ٣٦٧ هـ ، ٩٧٧ م وتمكن من إنزال الهزيمة بأعدائه .

وظلت الجيوش الفاطمية تخرج من مصر وتعود إليها عبر سيناء حتى ظهر الصليبيون فى شمالى الشام ، وقوضوا نفوذ السلاجقة والفاطميين .

الصليبيون :

وقفت الدولة الفاطمية موقفا مضطربا يتسم بعدم الفهم لحقيقة الحركة الصليبية فى أدوارها الأولى . وليس هناك من تفسير لهذا الموقف سوى انشغال الفاطميين بمشاكلهم الداخلية وتحكم روح العداء بين الفاطميين الشيعة فى مصر والسلاجقة السنيين فى الشام ، وهو العداء الذى جعل الفاطميين ينظرون فى أول الأمر إلى الصليبيين كقوة مفيدة ، ويمكن أن تشكل حاجزا بينهم وبين خصومهم السلاجقة ، لهذا كله اتصفت الأعمال الحربية فى ذلك الدور بسوء النظام والإهمال وعدم تقدير خطورة الموقف .

وتنبه الفاطميون للخطر الصليبى عندما رأوا جموع الصليبيين تستولى على بيت المقدس ، فخرج الوزير الأفضل بنفسه على رأس الجيش الفاطمى إلى بلاد الشام لدفع الصليبيين ، فحلت الهزيمة به وبجيشه عند عسقلان فى أغسطس ١٠٩٩ م ، ٤٩٢ هـ وساعد هذا الانتصار على تثبيت أقدام الصليبيين فى فلسطين وتوسيع نفوذهم .

وبرغم سوء أوضاع الدولة الفاطمية فقد بادر الوزير الأفضل بإرسال ثلاث حملات كبيرة إلى فلسطين عام ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٩ هـ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٥ م ، ولكن الحملات الثلاث منيت بالفشل الذريع نتيجة لسوء التنظيم والخلاف بين القادة وعدم التعاون بين الأسطول الفاطمى والجيوش البرية ، وترتب على ذلك أن تمكن الصليبيون من الاستيلاء على بقية موانى الشام ومدنه الجنوبية مثل صيدا وبيروت ، وتطلعوا إلى مصر ذاتها واستولى بلدوين الأول ملك بيت المقدس الصليبى على وادى عربة ، ووصل إلى إيلة على البحر الأحمر . واخترق شبه جزيرة سيناء ، واتجه إلى الدير فرفض الرهبان استضافته ، وأوغل فى أرض مصر ، واتجه إلى الفرما واستولى عليها ونهبها ثم تقدم إلى تنيس جنوبى بحيرة المنزلة حيث مات نتيجة لمرض مفاجئ بالعريش وهو فى طريق عودته سنة ٥٢٠ هـ ١١١٨ م .

وكان الوزير رضوان بن الوخشى شديد التحمس لجهاد الصليبيين ، فأنشأ ديوانا أسماه ديوان الجهاد ، ولكنه علم أن الخليفة الحافظ الفاطمى يكيد له سرا ففر إلى بلاد الشام وحصل على معونة من عماد الدين بن زنكى أتابك حلب (والى حلب) إلا أنه لم يستطع عند عودته إلى مصر أن يتغلب على جيوش الخليفة الفاطمى ، وانتهى الأمر بقتله عام ٥٣٤ هـ ١١٣٩م ، وفى النزاع الذى شب بين شاور وضرغام حول منصب الوزارة منذ عام ٥٥٨ هـ ١١٦٣ م استعان كل طرف من الطرفين المتنازعين بقوة

خارجية فاستعان ضرغام بالصليبيين واستعان شاور بنور الدين محمود بن عماد الدين زنكى .

وغدت مصر مسرحا لتنافس خطير .

وكان الصليبيون منذ وصولهم إلى العالم العربى يطمعون فى الاستيلاء على مصر . وفى نفس الوقت كان نور الدين محمود يرى أنه لكى تكتمل الحلقة الإسلامية والتعبير عن فكرة الجبهة الإسلامية المتحدة التى دعا إليها لمواجهة الخطر الصليبى يجب أن يستولى على مصر .

وقد حاول عمورى الأول الملك الصليبى على بيت المقدس غزو مصر سنة ٥٥٨ هـ ١١٦٣ م فوصل إلى بلبيس وحاصرها . ولكن ضرغام أرغمه على الانسحاب .

وأرسل نور الدين حملته الأولى إلى مصر سنة ٦٦٩ هـ - ١١٦٤ م بقيادة أسد الدين شيركوه وبصحبته شاور وصلاح الدين ابن أخى شيركوه ، وكان فى السابعة والعشرين من عمره ، وهنا استنجد ضرغام بالصليبيين وتعهد لعمورى الأول - مقابل مساعدته - أن يعقد معاهدة تصبح مصر بمقتضاها تابعة للصليبيين ، ولكن شيركوه قطع الصحراء بسرعة وسبق الصليبيين فى الوصول إلى الدلتا ، وانتصر على الجيش الذى أرسله ضرغام ، ونجح فى الدخول إلى القاهرة فى بداية مايو سنة ٥٥٩ هـ ، سنة ١١٦٤ م .

ونشب صدام آخر بين شاور وشيركوه ، فاستنجد شاور بعمورى الأول الصليبى الذى قدم بجيشه ، وحاصر شيركوه فى بلبيس ، وتم الاتفاق على مغادرة شيركوه وعمورى لمصر فى أواخر نفس العام . وقد أتيحت الفرصة لنور الدين الذى يريد القضاء على الخلافة الفاطمية فى مصر التى تدين بالشيعة وتمزق العالم الإسلامى بين شيعة فى مصر وسنة فى بغداد ، عندما أرسل إليه الخليفة العاضد الفاطمى يشكو من استبداد شاور ، فأرسل حملة شيركوه الثانية سنة ٥٦٢ هـ ، سنة ١١٦٧ م واستنجد شاور بعمورى الأول الصليبى مرة أخرى الذى أسرع بجيوشه لغزو مصر للمرة الثالثة .

وتحول الصليبيون إلى حماة لمصر والخلافة الفاطمية بعد اتفاق عقدوه مع شاور ، وينتهى الأمر بعقد اتفاق يعود بمقتضاه شيركوه وعمورى ويتركان مصر لينعم بها شاور من جديد .

بقيت قوة صليبية تحمى أبواب القاهرة التى بقى بها مندوب للملك الصليبى ، ورأى عمورى أن يحالف بيزنطة ليعود ويغزو مصر ، ولكنه انفرد بالهجوم على أرض النيل وغزا مصر للمرة الرابعة سنة ٥٦٤ هـ ، ١١٦٨ م ، واستنجد شاور بنور الدين محمود هذه المرة ، واضطر عمورى إلى الانسحاب عائدا إلى فلسطين فى يناير سنة ١١٦٩ م ، ٥٦٤ هـ . وفى عام ١١٦٩ م ، ٥٦٥ هـ بعد أن نوى صلاح الدين حكم مصر عقد عمورى الأول الصليبى حلفا مع الإمبراطور مانويل كومنين البيزنطى لغزو مصر برا وبحرا ، وتقدم الجيش البرى فى أكتوبر سنة ١١٦٩ م ، ٥٦٥ هـ من عسقلان إلى الفرما قاصدين دمياط . . . وصمد صلاح الدين وأرسل نور الدين محمود أرتالا من العساكر يتلو بعضها بعضا ، واستبسل أهالى دمياط ، وانسحب الصليبيون بعد فشلهم .

وتخلص صلاح الدين من الخلافة الفاطمية فى مصر ، ومات آخر خلفائها العاضد وهو لا يعلم بهذه النهاية ، وطلب نور الدين من صلاح الدين أن يخرج من مصر لمهاجمة حصن الشوبك سنة ١١٧١ م . ٥٦٧ هـ وقبل أن يكتب له النجاح عاد إلى مصر خشية أن يقبض عليه نور الدين ، ومرة ثانية يخرج صلاح الدين للاستيلاء على حصون الصليبيين فى الشوبك والكرك ، وعندما يقترب نور الدين من الكرك يتخوف صلاح الدين ويعود إلى القاهرة بحجة وصية أبيه ، ونفد صبر نور الدين وأخذ يستعد للزحف على مصر لتأديب صلاح الدين ، وبينما هو يستعد للقيام بحملته إذ به يموت فى مايو سنة ١١٧٤م ، ٥٦٩هـ ، وبذلك صار الميدان خاليا أمام صلاح الدين ، وعندما شب النزاع بين ورثة نور الدين محمود استنجد بعضهم بصلاح الدين ، فخرج من مصر على رأس جيش من سبعمائة فارس ، فوصل دمشق سنة ١١٧٤ م ٥٧٠هـ ، دون أن يصطدم هو والصليبيون فى الطريق .

حروب صلاح الدين ضد الصليبيين :

فى الفترة الأولى من ١١٧٤--١١٨٦ م (٥٧٠ - ٥٨٢ هـ) لم يكن صلاح الدين عندما خرج إلى الشام متفرغا للحرب ضد الصليبيين بل كان هدفه توحيد الجبهة الإسلامية .

أما فى الفترة الثانية ١١٨٦ - ١١٩٢ م (٥٨٢ - ٥٨٨ هـ) فكان صلاح الدين قد فرغ من توحيد الجبهة الإسلامية ، وتفرغ للنضال ضد الصليبيين ، وفى عام ١١٨٢ م ، ٥٧٨ هـ استولى أرناط الصليبى صاحب حصن الكرك على « أيلة » الميناء الهام على رأس خليج العقبة ، وواصل اعتداءاته على الموانى المصرية بالبحر الأحمر ، والموانى الحجازية فحاصر صلاح الدين الكرك وقاتل العادل أخوه فى البحر ففر أرناط بصعوبة .

واكتفى بعقد هدنة مدتها أربع سنوات انتهكها أرناط بعد ذلك بانقضاضه على قافلة للمسلمين كانت متجهة من القاهرة إلى دمشق فى أواخر عام ١١٨٦ م وأوائل عام ١١٨٧ م (٥٨٢ هـ) .

واختار صلاح الدين دمشق مقرا له خلال هذه المرحلة الحاسمة التى استمرت حتى نهاية القرن الثالث عشر بالقضاء على آخر البقايا الصليبية فى الشام .

وفى عام ١١٨٧ م -٥٨٣ هـ زحف العادل أخو صلاح الدين من مصر واستولى على يافا .

الدولة الأيوبية بعد صلاح الدين :

بعد موت صلاح الدين كانت مصر من نصيب ابنه العزيز عثمان الذى خرج من مصر صيف عام ١١٩٤ م - ٥٩٠ هـ قاصدا الشام وحاصر أخاه الأفضل .

ولما تحالف أفراد الأسرة الأيوبية فى الشام عاد إلى مصر ليخرج منها ثانية قاصدا دمشق ، وتتكرر القصة نفسها إلى مصر مرة أخرى .

وتم الاتفاق بين الأفضل أخى العزيز والعادل عمه وجمعا جيوشهما واستوليا على بيت المقدس ، وشرعا يزحفان على العزيز فى مصر حتى وصلا بلبيس وحاصراها وتتم عودتهما بعد ذلك .

وتسوء الأمور فى دمشق نتيجة فساد الأفضل فيتفق العادل والعزيز ويخرج الاثنان من مصر فى يونية ١١٩٦ م – ٥٩٢ هـ قاصدين دمشق التى تسقط فى أيديهم فى أوائل يوليو .

وعندما حاول الصليبيون الزحف على بيت المقدس استنجد العادل بالعزيز عثمان ، فحضر إليه فى أوائل عام ١١٩٩ م – ٥٩٤ هـ وتمكن المسلمون من الصمود فى وجه الصليبيين .

وفى عام ١١٩٩ م – ٥٩٥ هـ ، خرج الملك الأفضل من مصر على رأس جيش مصرى إلى دمشق للإطاحة بعمه العادل متآمرا مع أخيه الملك الظاهر ملك حلب .

ولما فشلا فى تحقيق هدفهما عاد الملك الأفضل إلى القاهرة فى أواخر ديسمبر ١١٩٩ م – ٥٩٦ هـ ، وتبعه الملك العادل وأنزل به الهزيمة قرب بلبيس ، وأصبحت مصر للعادل فى فبراير ١٢٢٠ م – ٥٩٦ هـ .

ولم يلبث أن خرج العادل من مصر لمواجهة مؤامرة جديدة أعدها الأفضل والظاهر لمحاصرة دمشق ، وأصبح العادل بعد هذه المؤامرة سلطان البلاد جميعا ، وولى ابنه الكامل (محمد) على مصر وفى عصر الكامل حاول الصليبيون غزو مصر ، ولكن بالبحر هذه المرة .

الحملة الخامسة :

وفى أثناء مقاتلة المصريين للصليبيين حول دمياط أغار بدو سيناء على القرى ونهبوها مستفيدين من حالة الفوضى القائمة ، وبعد دحر حملة الصليبيين الخامسة عانى البيت الأيوبى من الانقسامات ، وخرج الكامل من مصر لمحاربة السلاجقة ، ولكنه عاد عندما عرف بمؤامرة محوكة ضده فى الشام .

وخرج الكامل من مصر مرة أخرى لمواجهة حركة بين أبناء البيت الأيوبى للتخلص منه قضى عليها واستولى على دمشق فى أوائل ١٢٣٨ م – ٦٣٥ هـ ، وبعد موت الكامل وتولى ابنه العادل الثانى ملك مصر خرج عام ١٢٣٩ ، ٦٣٧ هـ لمواجهة حملة صليبية جديدة ، وأنزل بالجيش الصليبى الهزيمة قرب غزة فى ١٣ نوفمبر .

ومرة أخرى بعد عزل العادل من حكم مصر حاول الصليبيون التقدم لغزوها بمعاونة من بعض أبناء البيت الأيوبى ، وقرب غزة انضم أبناء البيت الأيوبى بقواتهم إلى القوات المصرية التى قدمت لمواجهة هذا الغزو ، ودحروا الصليبيين فى عهد الصالح نجم الدين أيوب الذى عقد معهم صلحا عام ١٢٤٠ م ، ٦٣٨ هـ . وعندما حاول الصليبيون مرة أخرى متحالفين مع الصالح إسماعيل الأيوبى حاكم دمشق . والناصر داود صاحب الأردن والمنصور إبراهيم ملك حمص غزو مصر ، دفع السلطان

الصالح أيوب بجنوده نحو غزة ، وانضم إليه حلفاؤه الخوارزمية ، وفى المعركة التى دارت بين الطرفين منى الصليبيون بالهزيمة الساحقة .

وبعدها انطلق الجيش المصرى لعقاب صاحب الكرك ودمشق لتحالفهما مع الصليبيين ، وكان هذا آخر خروج للملوك الأيوبيين عبر سيناء .

عصر المماليك البحرية :

لم يسلم الأيوبيون فى الشام باعتلاء شجرة الدر للعرش فى مصر وبدء عصر المماليك .

وبعد زواج المعز أيبك التركمانى من شجرة الدر وتولية صبى من البيت الأيوبى ابن الأشرف موسى شريكا فى الحكم – اسما جمع الأيوبيون جيشا يريدون به غزو مصر ، ولكنهم هزموا على يد المماليك البحرية عند العباسة بالشرقية ٦٤٨هـ ٢ فبراير ١٢٥١م .

وتشجع المعز أيبك ، وأرسل حملة بقيادة فارس الدين أقطاى ، فاستولى على غزة . وتقتل شجرة الدر ويتولى على بن أيبك ويسعى الملك المغيث عمر الأيوبى بتحريض من المماليك البحرية الذين سبق أن فروا إلى الشام لغزو مصر ، وتصل قواته إلى الصالحية بالشرقية لتلقى الهزيمة .

وبعد أن تولى قطز السلطة فى مصر وكان المغول قد وصلوا غزة أرسل إليهم بيبرس البندقدارى على رأس مقدمة الجيش ليتحسس أخبارهم ، وبعد انسحاب المغول من غزة احتلها المماليك ، وبعدها وصل قطز على رأس الجيش وبعد الانتصار على المغول فى عين جالوت عاد قطز وبيبرس وانتهز بيبرس الفرصة وقتل قطز فى الطريق واستأثر بالحكم ، ولما رفض الأمير علم الدين سنجر والى دمشق الدخول فى طاعة بيبرس أرسل إليه حملة بقيادة الأمير علاء الدين البندقدارى نجحت فى إحضار الأمير إلى القاهرة ٦٥٩هـ (يناير ١٢٦١م) .

وعندما استولى الأمير شمس الدين آقوش البرلى على حلب وعزم على السير إلى مصر لغزوها أرسل الظاهر حملة قضت على جيشه .

وبدأت حرب بيبرس ضد الصليبيين عام ٦٦١ هـ (١٢٦٣ م) عندما هجمت جيوشه على الناصرة وهجم هو بنفسه على مدينة عكا وإن لم يفلح فى الاستيلاء عليها .

وفى عام ٦٦٣ هـ (١٢٦٥ م) استولى بيبرس على قيسارية وعتليت وارسوف ، وفى العام التالى استولى على صفد وهونين وتبنين والرملة . وعام ٦٦٥ هـ أرسل جيشا تحت قيادة الأمير قلاوون للانتقام من مملكة أرمينيا لصغرى وإمارتى أنطاكية وطرابلس لتحالفهما مع المغول ضد المسلمين ، فاستولى على بعض القلاع التى شمال طرابلس .

وفى نفس العام وجه حملة ضخمة ضد أرمينية الصغرى أنزلت هزيمة كبيرة بالأرمن قرب

درباك (٢٤ أغسطس) ، ودمرت جيوشه مدن أرمينية الصغرى وبخاصة أدنة وطرسوس والمصيصة وسيس .

وتم الاستيلاء على أنطاكية فى مايو ١٢٦٨ م ، وفى عام ٦٦٩ هـ (١٢٧١ م) استولى على صافينا وحصن الأكراد وعكا والقرين .

وخلال حروب بيبرس ضد الصليبيين حارب مغول فارس ودفع شرهم عن بلاد الشام .

وعندما تولى السلطان السعيد بركة بن السلطان الظاهر الحكم خرج إلى دمشق ٦٧٧ هـ (١٢٧٨ م) فظن أمراء دمشق أنه يريد بهم سوءا فنووا السير إلى مصر لخلعه ، ونجحوا عام ٦٧٨ هـ (١٢٧٩ م) فى تحقيق هدفهم .

وفى عصر السلطان قلاوون خرج من مصر جيش لمقاتلة الأمير شمس الدين سنقر الأشقر نائب الشام الذى خرج على طاعة السلطان عام ٦٧٩ هـ (١٢٨٠ م) ، وانتهى الأمر بفرار الأمير سنقر بعد هزيمته .

وفى سنة ٦٨٠ هـ (٣٠ أكتوبر ١٢٨١) قاد قلاوون حملة لمقاتلة المغول ، وعند حمص نزلت بهم هزيمة ساحقة . وفى عام ٦٨٤ هـ (١٢٨٥ م) هجم على الصليبيين الاستبارية فى حصن المرقب واستولى عليه .

كما أرسل حلة عام ٦٨٦ هـ (أبريل ١٢٨٧ م) استولت على اللاذقية من الصليبيين .

ومرة أخرى خرج قلاوون من مصر على رأس جيشه فى فبراير ١٢٨٩ م للاستيلاء على طرابلس حيث سقطت عام ٦٨٨ هـ (أبريل ١٢٨٩ م) . ولجأ الصليبيون إلى خطب ود السلطان قلاوون بعد ذلك حتى وصلت بعض الجموع الصليبية من إيطاليا ٦٨٩ هـ (١٢٩٠ م) لتفسد هذا الجو باعتدائهم على المسلمين خارج أسوار عكا ، وبينما السلطان قلاوون يستعد للقيام بعمل حربى كبير ضد عكا إذ به يموت فجأة عام ٦٨٩ هـ (١٠ نوفمبر ١٢٩٠ م) .

وعندما تولى ابنه خليل الذى لقب بالأشرف بدأ يتأهب للخروج على رأس الحملة إلى الشام ، ووصلت الجيوش الإسلامية أمام عكا ٦٩٠ هـ (أوائل أبريل ١٢٩١ م) وافتتحها المسلمون فى ١٨ مايو ١٢٩١ م) .

ولم يصبح للصليبيين بعد ذلك مقام فى تلك البلاد .

وفى عصر السلطان الناصر محمد بن قلاوون أوغلت جيوش المغول فى بلاد الشام ٦٩٧ هـ (١٢٩٨ م) وأنزلت الهزيمة بالمماليك ودخلت دمشق ، فخرج جيش كبير من المماليك على رأسه السلطان الناصر قاصدا الشام ٦٩٨ هـ (١٢٩٩ م) ودخلوا دمشق .

المماليك البرجية :

وعندما انتقل الحكم إلى المماليك البرجية ، وتولى الظاهر برقوق الحكم ٧٨٤ هـ (١٣٨٢ م)--توالت المؤامرات ضده حتى نجح خصومه فى إشعال ثورة بالشام ، وزحفوا إلى القاهرة . وقبضوا على برقوق ونفوه إلى الكرك . ٧٩١ هـ (١٣٨٩ م) .

ولكن (برقوق) ينجح فى الفرار ويجمع جيشا ، ويهزم أعداءه عند صرحة ٧٩٢ هـ (١٣٩٠ م) ويدخل القاهرة ظافرا .

وأمام الخطر المغولى خرج برقوق على رأس حملة ٧٩٧ هـ ١٣٩٥ م ولكنه وجد أن تيمورلنك قد عاد إلى بلاده ، فرجع هو الآخر إلى القاهرة .

وخلف (برقوق) فى الحكم أكبر أبنائه الناصر فرج . وعندما سمع بعودة تيمورلنك واجتياحه حلب أسرع على رأس جيش كبير عام ٨٠٣ هـ (١٤٠٠ م) وعندما أدرك حرج موقفه عاد إلى القاهرة ، وترك جيشه يلقى أسوأ مصير .

وبعد موت السلطان الناصر فرج نشب خلاف حول السلطة بين كل من الأمير شيخ والأمير نوروز ٨١٥ هـ (١٤١٢ م) وأسفر الصراع عن تولى الأمير شيخ منصب السلطنة بعد أن تلقب بالمؤيد ، فثار نوروز فى الشام فخرج السلطان المؤيد شيخ فى العام التالى لتوليه إلى الشام وتخلص من نوروز بالقتل .

وخلال حكمه قام بحملتين على الأطراف الشمالية لبلاد الشام لإرغام الدوبلات التركمانية على الحدود للعودة إلى سابق تبعيتها للدولة المماليكية ، وقد خرج بنفسه على رأس الحملة الأولى ٨٢١ هـ (١٤١٨ م) ، وأرسل ابنه إبراهيم على رأس الحملة الثانية ٨٢٢ هـ (١٤١٩ م) .

وقد حرص السلطان قايتباى بعد السلطنة ٨٧٢ هـ (١٤٦٨ م) على تأمين حدود دولته من ناحية الشمال ، فأرسل عدة حملات لتحقيق هذا الهدف .

وشهد عصر السلطان الغورى ٩٠٦ هـ (١٥٠١ م) نمو دولة العثمانيين وتزايد حوادث الاستفزاز من جانبهم .

وعندما انتصف شهر مايو ١٥١٦ م (٩٢٢ هـ) خرج الغورى على رأس جيشه إلى الشام ، ودارت المعركة بين الطرفين عند مرج دابق حيث حلت الهزيمة بالمماليك .

الفتح العثمانى وسيناء :

السلطان سليم الأول : ١٥١٢ ١٥٢٠ م

عندما التقت جيوش السلطان سليم الأول بقوات قنصوه الغورى سلطان الدولة المملوكية فى ساحة مرج دابق فى سوريا (١٥١٦ م) كان لقاء بين دولتين إحداهما فتية والأخرى ضعيفة ، ومن ثم كان

طبيعيا أن ينهزم المماليك ، ويقتل سلطانهم فى المعركة .

وأسرع الأتراك العثمانيون بالتوغل جنوبا متعقبين فلول المماليك المهزومين ، وسقطت المدن السورية تباعا فى يد السلطان سليم الأول ، فاستولى على حلب وحماة وحمص ودمشق . ثم تابع زحفه على مصر فدخل يافا وغزة والعريش ، ثم عبر صحراء سيناء ودخل الدلتا زاحفا إلى بلبيس ، واستأنف زحفه قاصدا القاهرة والتقت قوات طومان باى فى يناير ١٥١٧ م عند الريدانية بين المطرية والجبل الأحمر ، حيث انتصر الأتراك على المماليك ودخلوا القاهرة .

المماليك مرة أخرى

حملة على بك الكبير : ١٧٧١ – ١٧٧٣ م

ضم الشام :

كانت أحوال الشام تحت الحكم العثمانى فى أثناء القرن ١٨ تعكس نفس الضعف الذى كان قد أصاب بقية أنحاء الإمبراطورية ، وكانت الشام تشتمل على ديانات مختلفة وطوائف متعددة ، علاوة على وجود العصبيات ، وخاصة عند أهالى المناطق الجبلية وقبائل وعشائر البادية . وكثيراً ما كانت سلطة ممثل السلطان فيها لاتتعدى دائرة المدن والموانى التى يحكمون منها ، وفى مناطق كثيرة ظهرت شخصيات متميزة لم تخضع لسلطة الدولة إلا من الناحية الرسمية . ويهمنا من هذه الشخصيات ، وفى الفترة التى ندرسها شخصية الشيخ ظاهر العمر . الذى تمكن من أن يصبح متصرفاً فى صيدا ويافا وحيفا والرملة ونابلس وصفد وعكا : أى أن سلطته امتدت على جميع سوريا الجنوبية أوفلسطين ، واتخذ من عكا مركزاً لشياخته الكبيرة . وهذه الشخصية ستؤثر فى مصر ، وفى تاريخ مصر ، نتيجة لاتصالها بعلى بك الكبير ولوضع مشروعات عمل مشتركة بينهما .

وعندما تخلص على بك الكبير من الباشا العثمانى فى القاهرة فى سنة ١٧٦٨ أرسل إلى الشيخ ظاهر يعلمه بذلك ويعرض عليه التعاون معاً ضد مكايد العثمانيين ، وفى نفس الوقت خشيت الدولة العثمانية إمكان إقامة تحالف بين أميرى مصر وفلسطين ، فوجهت والى دمشق إلى ضرورة الحيلولة دون تلاقى جيشيهما وتقدم عثمان باشا صوب منطقة نفوذ الشيخ ظاهر . وعند بحيرة طبرية أظهر الشيخ ظاهر أنه قد انهزم وانسحب وترك معسكره ، الأمر الذى دفع العثمانيين إلى احتلال هذا المعسكر . وكان قد جمع القوات فى المنطقة المحيطة ، ونزل بها ليلاً على الأتراك وهزمهم واستولى منهم على كميات كبيرة من الأسلحة والذخائر ، وكان هذا الانتصار سبباً فى عودة سلطة الشيخ الظاهر إلى ما كانت عليه ، ولكنه ظل يخشى مما قد تقدم عليه الدولة العثمانية ، فاتصل بعلى بك الكبير فى أواخر سنة ١٧٧١ لكى ينجده من الخطر المحدق به .

وكانت قوات على بك قد عادت مظفرة فى ذلك الوقت من الحجاز ، فوافق على الدخول إلى العمليات فى الشام . وعين على بك عبد الرحمن أغا الإنكشارية قائداً لتحريدة كانت مهمتها تأمين الطرق بين مصر وفلسطين ، وقامت هذه الحملة بمهمتها . وتخلصت من الشيخ سليط شيخ عربان غزة . ثم أرسل على بك حملة ثانية كانت بقيادة إسماعيل بك ، وكان عدد رجالها يزيد على عشرة آلاف مقاتل ، وسارت بطريق البر فى الوقت الذى رحلت فيه حملة ثالثة من دمياط بحراً ثم أردفها بحملة جديدة . وكان لنزول القوات المملوكية المصرية إلى سوريا الجنوبية تأثير كبير على القيادة العثمانية فى الشام ، وانسحب عثمان باشا بسرعة من منطقة القدس إلى دمشق ، وفى ذلك الوقت تقدم الشيخ ظاهر لملاقاة حلفائه المماليك . واستعد للزحف على دمشق .

والظاهر أن إسماعيل بك تردد فى مهاجمة عثمان باشا حينما ادعى هذا الأخير أنه خارج للحج ، وفى نفس الوقت عززت الدولة العثمانية قواتها فى الشام . فأرسل الشيخ ظاهر إلى على بك يطلب قائداً أطوع ومدداً أوفر . ولاشك فى أن نزول القوات المصرية إلى فلسطين قد أظهر صلاحية هذه الأراضى لاتخاذها قاعدة حربية لعمليات الجيش المملوكى فى كل سوريا . ولكنه أظهر كذلك حاجة هذه العمليات إلى المدفعية ، وضرورة الحصول على مساعدة من جانب البحر وخاصة أن الطريق البرى كان طويلاً ومهدداً . وكانت هذه الضرورة هى التى وجهت على بك الكبير إلى أن يستمع لاقتراح روستى ويتصل بجمهورية البندقية لكى يحصل على ما يريد . ويعرض عليها فى نفس الوقت محالفته ومساعدته على امتلاك بعض الجزر العثمانية فى البحر المتوسط وإعادة تجارتها مع المشرق إلى ما كانت عليه من قبل .

ولكن ظروف جمهورية البندقية فى ذلك الوقت اضطرتها إلى تقديم الشكر وإلى الاعتذار فى نفس الوقت ، وكانت العمليات الحربية قد تجددت بين الدولة العثمانية وروسيا بشكل احتجز معظم القوات العثمانية فى البلقان . وتمكن الأسطول الروسى من أن يعمل فى البحر المتوسط ويحاول إثارة الولايات والعصبيات والأقليات على الدولة العثمانية فلم يجد على بك عضاضة من أن يحصل على حاجته عن طريق روسيا والأسطول الروسى ، وكتب على بك إلى الكونت أورلوف قائد الأسطول الروسى فى البحر المتوسط وأبدى رغبته فى عقد معاهدة تحالف وصداقة مع روسيا ، ووعده بكل ما يحتاج إليه جيشه وأسطوله من مئونة ومال وطلب إليه فى نظير ذلك أن يزوده بالمدفعية وبعدد من المهندسين ، وشجع الكونت هذه الحركة ووعد بعرض هذه الطلبات على كاترين الثانية إمبراطورة روسيا .

ويصل بهذا إلى انقسام واضح فى منطقة سوريا بين قوات الدولة العثمانية المتمركزة فى نصفها الشمالى وقوات على بك والشيخ ظاهر التى فى فلسطين . ومع هذا الانقسام كان هناك انقسام واضح آخر ، إذ أن اتصال على بك بالأسطول الروسى فى وقت محاربة روسيا للدولة العثمانية دولة الخلافة الإسلامية - كان يؤدى إلى تخلخل معنوى ، وعلى أساس دينى بين عدد من رجال على بك نفسه .

وإذا كان الجيش العثمانى يحظى بإمداد وتموين يأتى له من آسيا الصغرى ، وعلى اتصال بعاصمة الدولة – فإن قوات على بك الكبير كانت فى حاجة إلى إمدادات ومعونات تأتى لها عن طريق البحر ولم تكن واثقة من وصولها ما دامت كاترين الثانية لم تكن قد أخذت قراراً فى الأمر بعد .

واهتم على بك بتجهيز الحملة الجديدة التى حاول أن يصل بها إلى إنهاء الخطر العثمانى من سوريا . وبلغ عدد رجالها أربعين ألف مقاتل ، زودهم بما يحتاجون إليه من سلاح وذخيرة وعتاد وعين محمد بك أبو الذهب بطل حملة الحجاز قائداً عاماً ، وكانت تجريدة كبيرة ، وخرجوا فى تجمل زائد واستعداد عظيم ! . . ومعهم الطبول والزهور والذخائر . . . والمدافع والجبخانات ، وأجناس العالم ألوفاً مؤلفة . كما يقول الجبرتى ، ولقد اضطر على بك إلى فرض مبالغ على كل مدينة فى مصر ، وفرض أموالاً على اليهود والأقباط حتى يتمكن من تجهيز هذه الحملة ، وزحفت الحملة فى شهر ديسمبر ١٧٧١ واحتلت غزة . وانضمت إليها حملة إسماعيل بك التى كانت هناك ، ثم استولت على الرملة ونابلس . وحين اقتربت القوات المملوكية من بيت المقدس اشترط رجال الدين وقضاة المدينة عدم قيامها بعمليات فى المدينة المقدسة . وسلمت يافا بعد حصار شهرين ثم انضمت قوات الشيخ ظاهر إلى القوات المصرية واحتلوا صيدا ودخل أبو الذهب دمشق يوم ٦ يونيو سنة ١٧٧١ دون أن تسيل قطرة واحدة من الدماء ، وارتدت حامية المدينة إلى القلعة وتحصنت بها ثم حاصرتها القوات المصرية واضطرت إلى التسليم . ودخل أبو الذهب دار الوزارة فى دمشق وجلس حيث كان يجلس مُمَثِّل السلطان .

ووصل صدى هذا الانتصار إلى القاهرة واحتفل به على بك احتفالاً كبيراً ، فزينت مصر وبولاق ومصر العتيقة زينة عظيمة ٣ أيام بلياليها . وتفاخروا فى ذلك إلى الغاية . وتعاظم على بك على نفسه ولم يكتف بذلك ، فأرسل إلى محمد بك يأمره بتقليد الأمراء المناصب والولايات على البلاد التى فتحوها وملكوها .

وأصبح على بك سيداً على سوريا وأصبح فى وسعه أن يعلن نفسه سلطاناً على مصر وسوريا . وكان هذا أقصى ما وصل إليه نفوذ على بك الكبير .

وفى ليلة ١٠ يونيو ١٧٧١ بدأ نجم على بك على الأفول : ذلك أن محمد أبو الذهب قد عاد سريعا إلى مصر ، وسحب فى طريق عودته جميع الحاميات التى كان قد تركها فى البلاد المفتوحة ، وبدأ يحارب سيده وولى نعمته .

وأخذت عودة محمد بك أبو الذهب من الشام شكلا سريعا قارب شكل الفرار أكثر من شكل التقهقر أو قارب شكل الهجوم المفاجئ السريع على مصر . وكان محمد بك أبو الذهب يتخلص من كل ما يعوق سرعة تقدمه وبشكل جعله يصل إلى القاهرة بعد ساعات قليلة من وصول نبأ عودته إلى على بك .

ولا شك فى أنه كان يرغب بذلك الإفادة من عنصر المفاجأة حتى يسهل عليه إتمام الانقلاب .

وبعد وصول أبو الذهب إلى القاهرة تمهيدا للانقلاب على سيده أصدر على بك قرارا بنفيه إلى الصعيد تمهيدا للتخلص منه . وبعد أن اعتقد على بك أنه قد أمن على موقفه إلى درجة ما وخاصة أنه أرسل بعد ذلك حملة جديدة إلى سوريا الجنوبية لمساعدة الشيخ ظاهر وكانت تبلغ ما يقرب من ٥٠٠ أو ٦٠٠ فارس تمكنت من الانتصار على قوات عثمان باشا قرب نهر الأردن فى شهر سبتمبر ١٧٧٢ . ولكن قلة عدد قوات هذه الحملة كانت تدل على أن (على بك) لم يكن مطمئنا كل الاطمئنان للموقف الداخلى فى مصر نفسها ، وأنه كان يتوقع بعض الأحداث ويرغب فى أن يكون مستعدا لمواجهتها .

هرب على بك إلى عكا :

استعد على بك بسرعة للخروج من القاهرة ، وعمل على تجهيز متاعه الخاص ، وأرسل يأمر المعلم (رزق) المتصرف فى الشئون المالية بإحضار ما بالخزانة من أموال ولكنه لم يجد المعلم رزق الذى كان قد اختفى .

وفى نفس الوقت اتصل على بك بسرعة عن طريق يعقوب الأرمنى بالكونت أورلوف قائد الأسطول الروسى ، وأبلغه ما حدث ، وأنه ذاهب إلى سوريا ، وطلب منه أن يرسل إليه هناك مددا من الجنود والمدافع والخبراء يستعين بهم على العودة إلى مصر ، ثم خرج من القاهرة فى ليلة ١٢ من أبريل سنة ١٧٧٢ ، وكانت معه قوة لا تتجاوز ٧ آلاف رجل بين فرسان ومشاة ، وكان ستة وعشرون بعيرا تنقل ماله وثيابه . وكانت ثروته الخاصة تقدر بثمانمائة ألف محبوب ، هذا علاوة على كمية من المجوهرات تزيد قيمتها على ٨ ملايين من الروقات . وأسرع فى السير حتى لا يلحق به أبو الذهب ، ووصل إلى عكا بعد ١١ يوما .

دخل أبو الذهب إلى القاهرة فى اليوم التالى لخروج سيده منها ، وبعد أن كان قد غاب عنها سبعين يوما وتخلص من أعوان سيده بالسجن وبالقتل ، وأمر بإبطال النقود التى حملت اسم على بك ، وأرسل يبشر الباب العالى بما قام به .

ومن ناحية أخرى كان على بك قد وصل إلى الشام منهكا كسير النفس ، وأصابته حمى شديدة ، وإن كان الشيخ ظاهر قد عمل على طمأنته ورفع روحه المعنوية .

ومرت بعض قطع الأسطول الروسى فى ميناء عكا بقيادة الفارمن ريزو فنزل مع بعض الضباط لتحية على بك ، وانتهز هذا الأخير الفرصة ، وأرسل معه ذو الفقار بك يحمل هدية إلى الكونت أورلوف مع رسالة جديدة يرجو فيها إرسال بعض قطع المدفعية والذخيرة مع ثلثمائة جندى من البلقانيين الذين يخدمون فى قوات روسيا نظرا لحاجته الشديدة إليهم فى عملية عودته لاستعادة السلطة فى مصر .

وكان على بك فى موقف صعب وهو فى سوريا وخاصة أن الدولة العثمانية كانت تواصل الضغط على هذه المنطقة لكى تخضعها وتقضى على شوكة سادتها والعصبيات التى فيها ، وأخذت القوات العثمانية تهدد صيدا ، فاشتركت قوات على بك وقوات الشيخ ظاهر فى الدفاع عن هذه المدينة ، وتمكن المماليك وحلفاؤهم من رد هجوم العثمانيين عن المدينة . ورفع هذا الانتصار من روح على بك المعنوية ، وعمل على دعم سلطته فى المنطقة حتى يسهل عليه أمر التقدم من جديد إلى مصر بمجرد مجيء المدد الروسى . وبدأ بحصار يافا وساعدت سفن الشيخ ظاهر فى نقل العتاد والتموين فى هذه العملية ، لكن قائد الحامية رفض التسليم برغم إحكام الحصار على هذه المدينة ، وكان قد اختزن فيها قدرا كبيرا من الزاد والعتاد ، وأمر على بك بنصب المدافع تجاه الباب الشرقى للمدينة ، ولكن دون أن يتمكن من الوصول إلى نتيجة حاسمة ، فاضطر على بك إلى فتح غزة واللد والرملة والسيطرة عليها ، وعاد بعد ذلك إلى يافا من جديد ، واشتد الحصار وأمر على بك بقطع أشجار الفاكهة المحيطة بالمدينة لتضييق الحصار على من كان بها ولحرمانهم من الوقود اللازم لهم .

وعاد ذو الفقار على سفينة روسية ، ومعه يعقوب الأرمنى ، وكانت السفينة تحمل النجدة الروسية التى تتمثل فى ضابطين وثلاثة مدافع للميدان من النحاس وسبعة بنادق مع ٥٠٠ طلقة . وحمل يعقوب الأرمنى رد أورلوف الذى وعد على بك بالعمل على إرسال نجدة سريعة ، ووضعت هذه المدافع الثلاثة معززة لمدافع على بك الكبير .

ولكن أحد الضابطين الروسيين أصابته طلقة قضت عليه ، فطلب على بك من السفينة الروسية ٣ مدافع أخرى . وبرغم تصدع بعض الأجزاء من الأسوار فإن المدافعين استماتوا بدرجة أجبرت الهاجمين على الارتداد عن المدينة بعد تحملهم خسائر كبيرة ، وعاد الضابط الروسى الثانى إلى سفينته . وظل الموقف على ما هو عليه حتى بعد مجيء بعض قطع الأسطول الروسى فى منتصف شهر ديسمبر ومشاركتها فى ضرب يافا بالمدفعية من جهة البحر .

وأدى الحصار فعله مع الزمن وخاصة أن سفن الشيخ ظاهر منعت من الدخول إلى هذه المدينة فى الأول من فبراير سنة ١٧٧٣ . أى بعد ثمانية أشهر من الحصار ، وكان فتح يافا مشجعا لعلى بك الكبير على الاستعداد للعودة إلى مصر .

ومن القاهرة كان محمد بك أبو الذهب يفكر فى الموقف ، ويجد أنه من الأصوب فصل الشيخ ظاهر عن على بك ، والإسراع بملاقاة قوات على بك قبل أن تتم استعدادها ، أى فى أقرب فرصة ممكنة . وياحبذا الأمر لو كان هذا اللقاء قريبا من الأرض الخضراء من قواعده هو فى مصر ، وبعد أن تكون قوات على بك قد أنهكت بالسير فى شمالى صحراء سيناء حتى يسهل توجيه الضربة إليهم ، إذن فقد كان من اللازم استدراج على بك الكبير مع ما تمكن من جمعه من قوات حتى ذلك الوقت إلى مصر من جديد .

وأوعز محمد بك أبو الذهب - إلى بعض البكوات الموالين وبعض ضباط الفرق بأن يكتبوا إلى على بك يستنجدونه من ظلم (أبو الذهب) ومن قسوته ، ويغرونه بالعودة إلى مصر.

وتمت الخدعة وعاد مندوب على بك من طرف الكونت أورلوف دون أن يصطحب معه مددا ، فعمل الشيخ ظاهر على مساعدة حليفه ، وأمر بجباية الأموال المقررة على عزة واللد والرملة وجمع ما قد يوجد بها من مؤن وعلف للجيش وللخيول ، وسحبت حاميات هذه المدن ، وبدأ الجيش يتحرك فى أوائل مارس ١٧٧٣ . وكان مكونا من مماليك على بك ومن جنود الشيخ ظاهر ، علاوة على ثلاثة آلاف جندى من المغاربة ، أى أن هذه القوات لم تزد فى عددها على ٨ آلاف من فرسان ومشاة .

ووصلت قوات على بك الكبير بعد مرورها فى غزة وفى خان يونس ، إلى الصالحية فى ٤ من إبريل ١٧٧٣ ، وهناك التقت هى وطلائع جيش محمد بك أبى الذهب ، وبرغم تفوق جيش أبى الذهب فى العدد على المهاجمين فإن المعركة لم تستمر إلا ساعات مى فيها الجيش المدافع بخسائر فادحة ، واضطر للانسحاب . ودخلت قوات على بك الكبير إلى الصالحية بقيادة على بك الطنطاوى .

وتمكن محمد بك أبو الذهب من تكوين جيش كبير ليواجه به قوات على بك التى فى الصالحية ، وبلغت هذه الأخبار إلى مسامع على بك ، فحزن لها ، ولكنه استمر فى تدريب قواته برغم إنهاك قوته وانخفاض روحه المعنوية وإصابته بالحمى من جديد ، والتقت القوتان فى يوم ١٣ أبريل . وكان جيش على بك أكثر تنظيما ، برغم قلة عدده ، وبدأت المعركة قبيل الظهر : الفرسان فى الجناحين ، والمشاة فى القلب . وصادف أحد الجناحين نجاحا . وكان بقيادة على بك الطنطاوى ، أما الجناح الأخير فقد انهزم وكان بقيادة ولدى الشيخ ظاهر العمر ، ولكن المشاة انضموا إلى قوات محمد بك (أبو الذهب) فتغير شكل المعركة بوضوح .

وشعر على بك الكبير أنه فقد كل شىء ، ولكنه صمم على الصمود ثم سمح لرجاله بالانسحاب قبل اقتراب الحصم ، وظل فى الميدان مع بعض حاشيته ، وهجم كخيا (أبو الذهب) ومعه نحو الثلاثين رجلا على بسطاط على بك واقتحموا بابه برغم مقاومة عشرة من مماليكه قتل وجرح فى أثنائها بعض المهاجمين . ولما أحاطوا بعلى بك فزع برغم مرضه إلى سيفه فشرعه للدفاع عن نفسه ، وصرع أول قادم بضربة واحدة وجرح اثنين آخرين . وعندما تبين للمهاجمين جرأة المدافع عن نفسه أطلقوا عليه النار فأصيب فى ذراعه اليمنى وإبهامه بطلقتين ، ولكنه لم ينفك يقاوم ، وأطلق النار عليهم بيده اليسرى فجرح الكخيا ولكنه خر على الأرض صريعا بعد أن أصابت يده اليسرى طعنة سيف ، فحملوه جريحا أسيرا إلى بسطاط أبى الذهب .

وكانت هذه الموقعة حاسمة فى حياة على بك الكبير ، كما كانت هامة بالنسبة لتغير سير الأمور فى مصر ، وقضت على هذا الاتجاه الاستقلالى عن الدولة العثمانية حتى لو كانت عودة سلطة هذه الدولة على مصر عودة اسمية ما دامت القوة الفعلية ظلت مركزة فى المماليك .

وبعد وصول على بك إلى معسكر أبى الذهب قام هذا الأخير وقبل يده وحاكاه فى ذلك بقية المماليك ، وكان الرباط بين المملوك وسيده من القوة بشكل يصعب على الأحداث أن تفصم عراه ، وحملوا (على بك) فى محفة إلى داره بالأزبكية ، وأحضروا أحد الأطباء لمعالجته ، ولكنه توفى بعد بضعة أيام فى أوائل شهر مايو ١٧٧٣ .

نابلون بونابرت وسيناء :

فى ٢٧ يونيو عام ١٧٩٨ وصلت قوات نابليون إلى الإسكندرية ، وبدأ احتلال الإسكندرية فى ٢ يوليو بعد مقاومة من جانب أهلها دامت بضع ساعات . وفى مساء ٣ يوليو بدأ زحف الحملة على القاهرة من طريقين :

١ – حملة برية وهى الرئيسة وتتقدم على الطريق البرى .

٢ – حملة بحرية تتألف من سفن الأسطول الخفيفة تسير فى فرع رشيد لتقابل الحملة البرية قرب القاهرة .

وفى أثناء زحف الحملة إلى القاهرة حدثت فى ١٣ يوليو مناوشات بين الفرنسيين وجيش مراد وأسطوله فى شبراخيت انهزم فيها مراد وتقهقر إلى القاهرة ، ثم تلا ذلك فى ٢١ يوليو موقعة إمبابة أو الأهرام التى حلت فيها الهزيمة بجيش مراد ، فانسحب بفلول جيشه إلى الصعيد فى حين فر إبراهيم متجهاً إلى سوريا ، وقد حمل أمواله ونفائسه وصحبه الباشا العثمانى والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف وقاضى القضاة العثمانى .

وفى ٢٤ يوليو دخل بونابرت القاهرة ثم أرسل الجنرال رينيه لمطاردة قوات إبراهيم فى الشرقية والجنرال ديزيه لمطاردة مراد فى الصعيد ، ثم لحق بونابرت نفسه برينيه فى مطاردة إبراهيم . ولكن الأخير تمكن من الفرار إلى سوريا عن طريق سيناء ، وعاد بونابرت إلى القاهرة بعد أن قامت بعض القلاقل بالقاهرة واستعداد تركيا لدفع قواتها لمحاربة بونابرت فى مصر ، وقد قرر بونابرت القيام بحملة على الشام تهدف إلى :

١ – تأمين المستعمرة الفرنسية فى مصر بإنشاء معاقل عسكرية فرنسية وراء صحراء سيناء لتقابل القوات العثمانية .

٢ - الضغط على الباب العالى لكى يتخذ موقفاً ودياً مع فرنسا .

٣ – حرمان الأسطول البريطانى من مراكز التموين على طول سواحل بلاد الشام .

وفى ١٠ فبراير عام ١٧٩٩ غادر بونابرت القاهرة على رأس حملة فاستولى على العريش فى ٢٠ فبراير ، ثم على غزة والرملة واللد ودخل يافا عنوة فى شهر مارس وقتل ١٢٠٠ أسير . وفى يافا وجد بونابرت عدداً كبيراً من المصريين المحتمين فى قلعتها ومن بينهم السيد عمر مكرم ، فلم يتعرض لهم

بسوء ، بل أعطاهم الأمان وأمر برجوعهم إلى بلدهم مكرمين . ثم استأنف بونابرت الزحف حيث استولى على حيفا ، ثم قدم عكا حيث لم يستطع دخولها ، وقرر العودة إلى مصر وفى ٢٠ مايو صدرت الأوامر باتخاذ الترتيبات اللازمة لتنظيم تقهقر الجيش من عكا والعودة إلى مصر ، فغادر الجيش عكا متقهقراً إلى يافا وغزة والعريش وفى ١٤ يوليو دخل بونابرت القاهرة دخول الظافر المنتصر .

وقرر بونابرت بعد ذلك العودة إلى فرنسا سراً وتولى كليبر القيادة ، ووقعت بعد ذلك اتفاقية العريش بين الفرنسيين والعثمانيين التى نصت على الانسحاب من مصر .

محمد على :

كانت أطماع محمد على لا تقف عند حد ، فقد كان حاكماً طموحاً ، فبعد انتصاراته ووصول جيوشه إلى الجزيرة العربية والسودان تحول إلى الشام التى وعده بها السلطان العثمانى محمود الثانى والذى لم يضع وعده موضع التنفيذ .

واستعل محمد على خلافاً نشب بينه وبين عبد الله الجزار والى عكا ، فأنفذ جيشاً قوامه ٤٠ ألف مقاتل بقيادة ابنه إبراهيم باشا فى ١٤ أكتوبر ١٨٤١ .

وعبرت الحملة سيناء ، واحتلت غزة والرملة ويافا وحيفا والقدس دون مقاومة ، واستولى على عكا عنوة بعد حصار برى وبحرى فى ٢٧ مايو عام ١٨٣٢ . وواصل إبراهيم باشا تقدمه صوب دمشق ، وهزم الجيش العثمانى ، فى حمص وحلب ، وفى ٢٩ يولية ١٨٣٢ اجتاز محمد بايلان وحقق انتصاراً حاسماً فى بيلان وأصبحت سوريا بأكملها بعده فى قبضته . ودخل الإسكندرونة حيث ظفر بالجيش العثمانى الذى أرسله الباب العالى بعدها عبر جبال طوروس وتوغل فى الأناضول وأحرز نصراً كبيراً فى قونية على الجيش العثمانى فى ٢١ ديسمبر ، وواصل تقدمه حتى وصل إلى كوتاهية وقارب الأستانة .

وانتهى هذا الفصل الذى عرف باسم حرب الشام الأولى بتوقيع معاهدة كوتاهية فى ٤ مايو عام ١٨٣٣ التى قضت بضم سوريا وأطنة إلى مصر وتولية إبراهيم باشا عليها .

وأتى توقيع المعاهدة نتيجة لتدخل الدول الأجنبية ، وبعد توقيع المعاهدة عاد إبراهيم باشا إلى سوريا وجعل من أنطاكية عاصمة له .

بعدها نقض الأتراك المعاهدة ، وحشد السلطان محمود جيشاً ضخماً لغزو سوريا ، فتجدد القتال بين المصريين والأتراك فيما سمى بعد ذلك بحرب الشام الثانية ، وحقق إبراهيم عدداً من الانتصارات على القوات التركية ، ولكن انتصاره الأكبر كان فى معركة نزيب الفاصلة فى ٢٤ يونية ١٨٣٩ . وكانت آخر وأكبر انتصاراته ، وبدأ التدخل الأجنبى الذى انتهى بمعاهدة لندن عام ١٨٤٠ .

وتراجعت القوات المصرية من الشام تحت ضغط القوى العسكرية الأوربية .

حملة الأتراك الأولى ١٩١٥ :

شهدت شبه جزيرة سيناء عام ١٩١٥ حملة تركية تعاونها بعض العناصر الألمانية الفنية تزحف فى طريقها إلى قناة السويس .

وقد قضت خطة الحملة التى ضمت ٣٠ ألف جندى بالزحف خلال الطرق الرئيسة الثلاث فى سيناء آنذاك وهى :

١ – طريق الساحل الممتد من العريش ماراً ببئر العبد .

٢ – طريق وسط سيناء عبر تلال سيناء ، وتخترق عدة دروب مارة بالحسنة وبير حمة والجفجافة .

٣ – طريق الحج وتمتد من نخل إلى السويس .

وقد تقدمت القوات التركية فى ١٣ يناير ١٩١٥ وفى ٢٧ يناير هجمت على القوات البريطانية المدافعة عن شمال السويس وفى ٢٨ يناير هجمت على القنطرة للمرة الثانية بعد أن كانت قد هجمت على منطقة تبعد عنها بمسافة ثمانية أميال هى نقطة التل ٧٠ ، يوم ١٥ يناير .

وفى أوائل فبراير اشتبكت المواقع الأمامية البريطانية والأتراك فى منطقة طولها ٢٠ ميلاً من سرابيوم إلى الفردان .

وفى ليلة ٣/٢ فبراير تحرك الأتراك للهجوم على الكوبرى والفردان ، وباء الهجوم بالفشل وبرغم ذلك تقدموا خلال نهار ٣ فبراير وحاولوا العبور فى المنطقة بين طوسون وسرابيوم ، وقاموا بهجوم مخادع عبر الفردان والقنطرة وفشل الهجوم .

وفى يوم ٥ فبراير أصدر جمال باشا القائد العام أمره بالانسحاب على جميع الطرق إلى بئر سبع .

حملة الأتراك الثانية :

بعد حملة الأتراك الأولى عادت القوات الإنجليزية تخطط أوضاع قواتها للدفاع عن سيناء لمواجهة أى محاولة جديدة يقوم بها الأتراك .

وفى ٩ يولية عام ١٩١٦ بدأت الحملة التركية الثانية تقدمها من بئر سبع فوصلت إلى بئر العبد وواصلا السير فى ١٩ يوليه ،

وفى ٣ أغسطس احتل الأتراك قاطية والرياح .

وفى منتصف ليلة ٤/٣ أغسطس ١٩١٦ زحف الأتراك للهجوم على القوات الإنجليزية فى رمانة ، ولكن الهجوم انتهى بكارثة إذ خسر الأتراك خلاله حوالى خمسة آلاف قتيل وجريح بالإضافة إلى

أربعة آلاف وقعوا أسرى ، بعدها انسحب الأتراك حتى بئر العبد ، وحدثت عدة معارك فرعية عند بئر العبد وحوض العيوض لم تؤد إلى نتائج حاسمة .

وفى فجر ٢٣ ديسمبر ١٩١٦ أحكمت القوات الإنجليزية الضغط على القوات التركية عند المقضبة وتم لها الاستيلاء عليها .

وفى ٣٠ ديسمبر أخلى الأتراك العريش . وفى ٩ يناير ١٩١٧ آلت رفح إلى قبضة الجيش الإنجليزى .

وهكذا تم تطهير سيناء من القوات التركية المهاجمة .

الجولات المصرية الإسرائيلية الأربع

١٩٤٨ - ١٩٧٣ :

بدأت سيناء تشهد فصولا من الصراع الإسرائيلى ابتداء من شهر مايو ١٩٤٨ .

فقد بدأت وحدات من المتطوعين تعبر سيناء فى طريقها إلى فلسطين للمشاركة فى درء الخطر الصهيونى . . بعدها شهدت نفس الطرق وحدات الجيش المصرى تتقدم لمقاومة إنشاء دولة إسرائيل . . واستمر الصراع حتى تم توقيع اتفاق رودس . .

ولم تمض تسع سنوات حتى شهدت طرق سيناء القوات الإسرائيلية تتقدم على عدة محاور استكمالا لمخطط العدوان الثلاثى . .

ولم ينته الموقف بانسحاب القوات المصرية ، فقد عادت وحدات الجيش المصرى مرة أخرى خلال عام ١٩٥٧ ، ودخلت غزة خلال شهر مارس من نفس العام . .

وكان مقدرا أن تشهد سيناء أسوأ هزيمة لحقت بالجيش المصرى فى يونية ١٩٦٧ نتيجة فساد القيادتين السياسية والعسكرية . .

واستمرت قوات إسرائيل تحتل سيناء وترفع أعلامها فى مواجهة شاطئ القناة الغربى حتى أكتوبر عام ١٩٧٣ . .

وأيضا كان قدر سيناء أن تشهد أول انتصار مصرى وأول هجوم ناجح للجيش المصرى بعد أكثر من ١٣٠ عاما . .

وعادت وحدات وتشكيلات الجيش المصرى تتقدم فى اتجاه الشرق . .

وبعد اتفاقية الفصل الثانية للقوات تقدمت عدة كيلومترات شرقا . .

وستظل سيناء بموقعها الفريد مسرحا للعمليات العسكرية وممرا للجيوش والحملات العسكرية .